المَجمَعِيّ الدّكتور عبد الإله نبهان

بين ثوابت التّرَاث وآفاق المُعَاصِرة في الدّرس اللُّغَوِيّ

دراسةٌ وصفيةٌ تحليليةٌ

أ. د. وليد مُحَمَّد السّراقبي (*)

الملخص

أُريدُ من هذا البَحث تقديم تعريف بالدّكتور عبد الإله نبهان، عضو مَجمَع اللُّغَة العَرَبِيّة بدِمَشْق، وبسط الكلام على جهوده في الدّرس اللُّغَوِيّ بين التّمسك بثوابت التّرَاث العَرَبِيّ والتّشوّف إلى آفاق الدّرس اللُّغَوِيّ المُعَاصِر، في الآثار العِلمِيّة التي تمثل مناحي متعددة من جهوده.

سارَ البَحث وفق أربعة مدارات بحثية، هي:

١- في التّأليف.

٢- في تحقيق النّصُوص الأدَبِيّة واللُّغَوِيّة.

٣- في نقد التّحقِيق.

٤- في نقد الاستشراق.

(*) جامعة حماة-سورية .

وتَهَـدَّى في ذلـك كُلِّهِ بالمنهجِ الوَصفيِّ المتعانقِ والتَّحليلَ، تَحـدُوهُ رغبةٌ لبيانِ موقعيّة (النَّبهَان)، رحمهُ الله، بين الأصول التّرَاثية التي انطلق منها، ورســخَتْ قدمُهُ فيها، وبــينَ ارتياد آفــاق البَحث اللُّغَويّ المُعَاصِر.

الكلماتُ المِفتَاحِيَّة: النَّبهَـان، التّرَاث، المَجمَعِيّ، المُعَاصِر.

في حِمْـص الغافيــةِ على أكتــافِ نهر العاصي، المَدِينَة التي امتزجَ تُرَابُهَا بدماءِ عددٍ من الصّحابَةِ -رضــوان الله عليهم- استُشــهدوا في رحلةِ الفَتحِ ورفع رايةِ الإســلام، المَدِينَة التي نبغ فيها شــعراء في القديــم والحديــث، مثال ديكِ الجــنِّ الحِمْصيّ، والثلاثيّ الذي حَمَلَ لواءَ الرّومانتيكيّة: عبد الباسط الصّــوفيّ، وعبد السّــلام عيــون السّــود، ووصفي القَرنفليّ... المَدِينَة التــي أنجبت من العلماء قديمًا وحديثًا، أمثال الشّــيخِ ياســين الحِمْصيّ، والمترجمِ الأديبُ الذي تَرجَمَ ما يزيدُ على ثمانينَ ألفَ صفحةٍ عن الفرنسيّة، وأعني به الدّكتور سامي الدّروبيّ، وأمثال العلاّمــة محيي الدّين درويــش والدّكتور شــاكر الفَحَّام وأضرابِهما في هذه المَدِينَة المَعروفة بمناخيها العِلمِيّ والثَّقَــافِيّ المتميزين، فتح الطّفل (عبــد الإلــه أحمَــد نبهــان)[1] عينيه عــلى الحياة ســنة ١٩٤٥م، وطرقَت أســماعه في مجالسُ جَده علَّامَــة حِمْصَ ما كان يدورُ فيها من نقاشــاتٍ في ميادِيــنَ مَعرِفيّة كثيرةٍ، من علــوم القُرآن، وعُلومِ الفِقهِ، وأصولِه، وعلــوم العَرَبِيّة من نَحو، وبَلاغةٍ، فأذكتْ هذه المناقشــات روح الطّفــل الطّلَعة، ولما لِقِفَ ما لِقِفَ من علومٍ في التّعليم الرّســمي أصبح الفتــى الذي يقــرأ لجده البصير مــا يكلِّفُه به من كُتــبٍ وحَواشٍ. وفي هذه المَجَالِس سَــمِعَ ما سَــمِعَ من أحاديثِ التّنويرِ والتّحديثِ، وعرَف أشــياءَ عن مُحَمَّد عبده، وعبد الحميد الزهراوي، وغيرهما.

ولمــا أنهــى تعليمــه الثّانويّ ســاقه حبُّه علومَ العَرَبِيّــة إلى كليَّة الآدابِ في جامعةِ دِمَشْــقَ، فنهلَ من عِلمِ أعلامِها، أمثال الشَّــيخ أحمَد راتب النّفَّاخ، وسعيدِ الأفغانيّ، وشاكر الفَحَّام. ثمَّ التَحق بقسمِ الدّراسات العليا، فوجدَ في الشّعبة اللُّغَويّة ضالَّته، وتوطّــدت عُــرى العَلاقــةِ بينــه وبين أســاتذتِه، وانتقلــتْ – لِمَــا رأوا فيهِ من نباهةٍ وعشــقٍ لهذه اللُّغَة- من التّلمذةِ إلى الصّداقةِ، وبات يحملُ لهم ما تُوجبُه عليه أخلاقُــه من تقديرٍ واحترام، وبتَوجيهٍ من علاّمة العَرَبِيّة أحمَد راتِب النّفَّاخ اختارَ ميدانَ التّحقِيــقِ لينجزَ فيه مع ثلاثــةٍ آخرين من زملائِه تحقيقَ موســوعةِ السُّــيوطيّ (ت ٩١١هــ)، فكان نصيبــه تحقيق الجــزء الأوَّل من هذه الموســوعة، فحصل به على درجة الماجســتير سنة (١٩٨٢م)، فدلف إلى مرحلة الدّكتوراه وختمها برسالته (ابن يعيش النّحوي) سنة ١٩٩٠م بمرتبة الشّرف.

ولكــنَّ تخصُّصه الدّقيــقَ في علوم اللُّغَة لم يَحُلْ بينــه وبين الموســوعيّة المَعرِفيّة، إذ إنَّــهُ – بِحَقٍّ – نموذج القارئ الموســوعي النّهم، فلا تجدُ بابًا من أبواب المَعرِفَــة إلَّا وَلجَهُ باقتدار، وصالَ في جَنَبَاتِهِ وجَالَ، فكان جَــمَّ المعارف قديمها وحديثها، كثيرَ المتابعة لمــا يُنْشر في أقــاصي الدّنيا، فأكســبه هذا ذاكرة كُتَبية متميِّزة قَلَّ مثيلها.

وفي ٧ أيلول ســنة ٢٠٠٨ م انتُخِبَ عُضوًا عاملًا في

(١) عوَّلنــا في كتابــةِ التَّعريــف به عــلى: السّــيرة العِلمِيّة للدّكتــور عبد الإله نبهان التي زوّدني بها ســنة ٢٠١٦م، المحفوظــة في مكتبتــي الخَاصّة، وعلى كتــاب أعلام مَجمَع اللُّغَة العَرَبِيّة في دِمَشْــقَ في مئةِ ســنة، الــذي أعده مروان البواب وصدر عن المَجمَع سنة ٢٠١٩م.

مَجمَع اللُّغَة العَرَبِيّة بدِمَشْــقَ خَلَفًا للشَّــيخ طاهر الجَزائريّ (ت ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م) رحمه الله[٢]، فكانَ مثالَ الدَّأَب والنّشاطِ والعَطاءِ.

لقد نشر زهاء ٧٠ بحثًا ومقالًا في مَجَلَّة المجمع، فقد ابتدأ النّشر فيه منذ سنة ١٩٧٢ قبل أن يصبح عضوًا مراسلًا، فاعلًا فيه.

طبــعَ لــهُ مَجمَع اللُّغَــة العَرَبِيّة بدِمَشْــقَ جملةً من الآثــارِ، مِنهــا: إعــرابُ الحَديث النّبــويّ لأبي البقاءِ العُكبريّ، ســنة ١٩٧٧ و١٩٧٨، والأشــباهَ والنّظائــر، ســنة ١٩٨٥، وبهجةَ العابدين، ســنة ١٩٩٨، والاشتقاق والتّعريب، سنة ٢٠٠٢.

ونــشر له معهد المَخْطُوطــاتِ العَرَبِيّة كلًا من (غوامــضِ الصّحــاح) للصّفــديِّ (ت ٧٦٤هـ) في طبعتــه الأولى ســنة ١٩٨٥/ الكويــت، ثم نُشِرَ في مكتبــة لبنــان نــاشرون ســنة ١٩٩٦. وأصدر له أيضًا الفهارس الشّــاملة لكتاب الأشباه والنّظائر للسيوطي سنة ١٩٩٨م.

وكان له مشــاركات كثيرة في ندوات ومؤتمرات محلية وعَرَبِيّة، ومنها: النّدوة العالمية للســانيات، جامعة دِمَشْــق، ١٩٨٠، والمؤتمــر العالمي لتاريخ الحَضَارَة الإسلامِيّة، وزارة التّعليم العالي، دِمَشْق، ١٩٩٢م، ومؤتمر النّقد الأدَبِيّ السّــادس، جامعة اليرمــوك، ١٩٩٦م، والنّــدوة العِلمِيّــة السّــابعة لتاريخ العلوم عند العــرب، مركز زايد، الإمارات، ٢٠٠٠م،...وكتب عــشرات الأبحاث والمقالات التي نــشرت في مجــلات محكمــة وغير محكّمــة محليًا وعَرَبِيّا.

وفي ســبيل الوقوف على جوانــب مِن جُهُودِهِ في الــدّرسِ اللُّغَوِيّ والأدَبِيّ بــين ثوابت التّرَاث وآفاق المُعَاصَرة سنقسمُ بحثنا هذا إلى المحاور الآتية:

١- التّأليف.

٢- التّحقِيق.

٣- نقد التّحقِيق.

٤- موقفه من الاستشراق.

جهوده في التّأليف:

تتراءى جهودهُ التّأليفيّة في ثلاثةِ مُستويات:

١- (ابنُ يَعيشَ النّحويّ)، وهو في الأصلِ رســالته لنيلِ شــهادةِ الدّكتوراه. وقد ســبقَ أنْ ذكرنا أنَّها جــاءت في (٨٥٠ صفحــة)، وســنَتَجَنَّب الحديثَ عنهــا؛ لأنها خضعتْ لتحكيمِ لجنــةٍ عِلمِيّة، ولأنَّها تُمثّل مرحلةً من مراحلِ حياته العِلمِيّة.

٢- الأبحاثُ التي شــاركَ بها في مؤتمــراتٍ عِلمِيّة، وهي كثيرةٌ ليس بين أيدينا ما يُمكنُ أنْ نعتمده في الحكم العِلمِيّ المَوضُوعِيّ.

٣- مقالاتٌ متناثرةٌ في مجلاتٍ متعدّدة لم يجمعْها في كتابٍ في أثناء حياتِه، نؤملُ أنْ نقومَ بذلك.

٤- المُقدّمــات التــي كتَبها لبعــضِ الكُتب. (كتاب آثار عبــد الحميد الزهــراويّ)، و(الأعمال الكاملة لرفيق رزق ســلّوم)، و(كتاب الاشتقاق والتّعريب لعبد القادر المَغربيّ).

٥- (بحوثٌ في اللُّغَةِ، والنَّحو، والبَلَاغَة)، وهو الأثرُ الوحيــد الــذي جمعَتْهُ دَفَّتا كتــاب. وهو في الأصل جملةٌ من المقالاتِ التي ســبق له نشرُها في مَجلاّت متعدّدة، وســيكون عليه معوَّلُنا في دراســةِ بعض أطاريحه التي انتشرتْ في هذا الكتاب. وســنتلبَّثُ مليًّــا عند هــذا الكتــاب مُســتعرضينَ مُحلِّلينَ ما

(٢) عــادة أنهم حين يختارون عضوا إنما يختارون كرسيَّ أحد الأعضاء المُؤَسّســين لا مكان عُضــو تُوُفِّيَ حديثًا، وكان بديلًا لمُؤَسّــس، وهذه خُطّة المَجمَع .وهــم في ذلك يملؤون كرسيَّ المُتَوَفَّ الأوّل.

تَضَمَّنه من دراساتٍ تَجمعُ بين الثّوابتِ التّرَاثيّة والأفقِ العِلميّ النّيِّر المتطلع إلى المُعَاصَرة ومُواكَبة الجديد.

احتجنَ كتابُ (بحوثٌ في اللُّغَة، والنّحو، والبَلَاغَة) مداراتٍ بحثيةً مُختَلفة في استطاعةِ الباحثِ تصنيفُها على النّحْو الآتي:

أ- في اللُّغَة عَامَّة واللُّغَة العَرَبِيّة خَاصّة (ص ص ٩ – ٩١).

ب- في قضايا العَرَبِيّة (التَّذكِير والتَّأنيث – مَعَايِير الخطإ والصّواب – المُشترك اللَّفْظِيّ – علم الأصوات)، ص ص ٩١ – ١٣٩.

ت- في النّحْو العَرَبِيّ (ص ص ٥٣ – ١٨٣).

ث- في المَجاز (ص ص ١٨٣ – ٢٢٣).

ج- في النّصّ ومفهومِه وقضاياهُ (ص ص ٢٢٣ – ٢٧٧).

ح- في الدّرس البَلاغيّ (ص ص ٢٧٧ – ٢٨٥).

أ- شرع في المدار الأول بتأصيلِ مُصْطَلَح اللُّغَة؛

فقد رأى أنَّ ثمة مَنْ يعتقد بل يؤمنُ بأنَّ مُصْطَلَح (اللُّغَة) مُصْطَلَحٌ يونانيّ الأصلِ دخلَ العَرَبِيّة من الأصلِ اليُونَانِيّ (لوغوس = logos) بمَعنى اللِّسان، ويَعني في الأصلِ الكَلمةَ أو الكَلام.

فقد نقل الدّكتور عوض القوزيّ عن الدّكتور (حسن ظاظا) أنَّ كثيرًا من الباحثينَ يذهبونَ هذا المَذهَب. ولكنَّ الدّكتور عبدَ الإلهِ شرعَ يردُّ عليه بإثارتِه سؤالًا هو: مَنْ هؤلاءِ الكثير؟

إن الدّكتور عوض القوزي لم يذكر مَنْ هؤلاء الكثير الذين يعتقدون بيُونانِيَّة مُصْطَلَح اللُّغَة إلا د. حسن ظاظا في كتابِه (اللِّسان والإنسان)، إذ يشيرُ القوزيّ إلى عددٍ منهم، ولا يؤيد ذلك بمقبوساتٍ من كتبِهم تُؤيّد ما يذهبُ إليه، ولم يُشرْ إلى بعضٍ هؤلاء على الأقل.

وتابع استدلالَه على خَطَلِ الرّأيِ السّابقِ، فاستنطقَ المَعاجم وكتبَ المُعرَّبَ، وانتهى إلى نتائجَ تؤصل لهذا «المُصْطَلَح» وتثبت أصالته في العَرَبِيّة، وتؤكّد افتئاتَ مُدَّعي يُونانيَّتِهِ وكان من ذلك[٣]:

١- لم يَسعَ علماءُ العَرَبِيّة إلى ادّعاءِ عُرُوبَة أيَّة كلمة، بل خصَّوا كلَّ لفظٍ بهويّته، فما كان ينتمي إلى أرومةٍ عَرَبِيّة نصّوا على عروبتِه، وما كان من أصلٍ غير عَرَبِيّ نسبوه إلى أصلِه وقالوا: كلمة روميّة، وأخرى فارسيّة، وثالثة حبشيّة، وهكذا دواليك.

٢- كان علماء العَرَبِيّة مَوضُوعِيّين، فلم يُعرف عنهم التّعصُّب فما كان من غير العَرَبِيّة لم يتحرَّجوا من النّصّ عليه، وهذا دليلُ إيمانِهم بتَقارضِ اللُّغَات.

٣- عدم نصِّهم في المُدَوّنات اللُّغَوِيّة كلّها على أنّ كلمةَ (لُغة) معرَّبة هو دليل قويٌّ على تأصُّلها في العَرَبِيّة.

٤- عدم ورود كلمة «لغة» في النّصّ القُرآني، وفي كتب المُعرَّب، ولم تكنْ موضوعًا للنّقاش والأخذ والرّدّ = دليل آخر على عُرُوبَة الكلمة.

٥- دوران كلمة (لغة) في الأحاديث النّبوية الشّريفة ببنياتها الصّرْفية المُختَلفة.

٦- مجيء جذر الكلمة في أبيات من مدوَّنة الشّعر الجاهلي، فجاءت بمعنى الصّياح والصّوت.

٧- استعمال القُرآن الكريم الجذر اللُّغَوِيّ للكلمة (اللغو) فقال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة ٢: ٢٢٥].

(٣)بحوث في اللُّغَة، والنَّحْو، والبَلاغَة، ص: ٩ – ١٥.

وقاده التّنقير عن مَصَادِر كلٍّ من حسن ظاظا ومن بعده الدّكتور عـوض القوزيّ = فوجد أن مصدر هـذه المقولة همـا مُعجَم محيـط المحيط لبطرس البسـتاني (ت ١٨٨٣ م)، والمنجـد لـــ (لويـس معلـوف) (ت ١٩٤٦)، فقد جـاء في أولهما: «ولا يبعـد أنَ تَكونَ مأخوذة من (لوغـوس) اليُونَانِيّة، ومعناهـا: كلمـة »[٤] . وجـاء في الثّانـي: «وربما كانـت لفظة (لغة) مأخوذة مـن لفظة (لوغوس) اليُونَانِيّة، ومعناها: كلمة »[٥].

يلاحـظ الباحـث أن الدّكتـور عبـد الإله نبهان لـم يعتمد في نفيه مقولة تعريـب كلمة (لغة) عن اليُونَانِيّة أسـلوبًا انفعاليًا؛ بل جاء أسـلوبُه سلسًا يقدِّم الحُجّة الدّامغة متكئًا على المُعجَمَات اللُّغَوِيّة، ثم المُدَوّنات قديمِها وحديثِها. وتابع بحثه وحجَجَه حتى وقـف على الأصلـين المُحدَثَـين اللذين أوردا الرّأي بصيغة غير قطعية، تاركَيْن مجالًا للمراوغة والمداورة، وذلك على طريقة كثير من المُسْـتَشْرِقينَ الذين يرمون آراءَهم غيرَ قاطعين ولا مُتشبّثين.

وهـذا الموقـفُ غـير المَوضُوعِـيّ مـن مُصْطَلَح اللُّغَة لا يقتصرُ على أولئكَ المُنسـاقين وراء مقولاتٍ واقعة تحت سيطرةِ المركزيّة الأوربيّة في صعودها الاستعمَارِيّ، فما أشدَّ شبَهَ القائلين بيونانيّة كلمة (لُغـة) بقـولِ من نَسَـبَ المسرحيَّ شكسـبير (ت ١٦١٦م) إلى أصـل عَرَبِـيّ لجمـالِ مُحيَّاه، فكلا الرّأيين ليسَ له من سَندٍ عِلميّ أو مُتكإٍ تاريخيّ.

وحـين عرض الدّكتـور النّبهَان لمُنَاقَشَـة مسـألة الخلافِ في نشأة اللُّغَة عَامَّة، سَلَك مَسلكَ التّسلسلِ التّاريخيِّ مُريدًا بذلك تبيانَ التّحوُّلاتِ والمُتَعرّجاتِ التـي تلـوَّت فيهـا، فبدأ بأبـي عليّ الفـارسيّ (ت ٣٧٧هـــ) الذي مال إلى أنَّ اللُّغَة توقيف. ثم انتقل إلى تلميـذه ابن جنِّـي (ت ٣٩٢هـــ)، وهو أظهرُ العُلمـاءِ الذين عَرَضوا للقَضِيَّـة، وكانت لهم فيها آراء متذبذبـة، «فلا نكاد نقعُ لـه على رأي قاطع في هذه المَسْأَلَة، فهو يتلوّى أمامَها تلوِّي الأفعوانِ، ويراوغُهـا مُراوغَة الثّعلب، يؤيدُ مذهبًا حتَّى تظنّ أنَّـه مذهبُـه، ثم مـا أسرعَ ما ينقضُـه مُتحولًا إلى مذهـب آخر »[٦]. ولذلـك رأى الدّكتور النّبهَان أن المَوضُوعِيّـة تقتضي عدم نسـبته إلى مَذهب معيَّن، فهـو مُتقبّل الآراءَ الثّلاثـة: التّوقيف، والاصطلاحُ، وتقليدُ الأصوات في الطّبيعة.

وقد حذا ابنُ سـيدة حذوَ ابن جِنّي فقلَّده فيما ذهب إليه من التّردد بين التّوقيف والتّواضع، فهو كابـنِ جِنّـي ليسَ له موقـفٌ خاصٌّ من المَسْـأَلَة، وليس له أيضًا لُغَةٌ خَاصّة يعبّر بها عن موقفِه من المَسْأَلَة، بل لمْ يكنْ له موقفٌ محدَّد أصلًا.

وآخر مَنْ وقف عندهم في بحثه المُرتَضَى الزَّبيديّ صاحبُ (تاجِ العَروس)، الذي نقل نصَّ السّيوطيّ في المَسْأَلَة، ومالَ إلى التّوقيف.

«لقـد كان عـرضَ النّبهَان لهـذه القَضِيَّة التي اختلفت فيهـا الآراء وتضاربت مدخـلًا له لتبيان موقفـه من هذه المَسْـأَلَة متبنيًا رأي الإمام الغزالي (تـ ٥٠٥هـ)، مستجيدًا له، وواصفًا إياه بالرَّوعة والمَوضُوعِيّة، فقـد خلص الإمام إلى نتيجة مفادها أن الخوض في هذه المَسْأَلَة من أساسه هو فضول لا أصلَ له، لأنَّهُ أمر لا يرتبط به تعبُّد عملي، ولا ترهق إلى اعتقـاده حاجـة، ولأنَّه لا مطمـعَ إلى الوصول

(٤) محيط المحيط (لغو).

(٥) المنجد (لغو).

(٦) بحوث في اللُّغَة والنَّحْو والبَلاغَة، ص: ٢٨.

إلى حقيقة من الحقائق في هذه المَسْـأَلة »[٧]. فهذا التّوجّه لدى الغزاليّ ينسجم كل الانسجام مع توجّه علم اللُّغَة الحديث، إذ غدت اللُّغَة موضوعًا للبحث الرّاهـن وفي مراحل تطوّرهـا، فتخلصتْ بذلك من أدران النّظَرِيّـات التـي تقوم على الظـنّ والرّجم بالغيـب. فلا فائدة من البَحث في نشـأة اللُّغَة، مَعَ أنَّ الفلاسـفة لم يتوقّفوا عن السّـؤال عنها، فبقي نشـوء اللُّغَة وارتباطُها بالفكر الإنسَانِيّ موضوعًا يشغل بالَ الإنسان ويقلقه[٨].

فـإذا تركنا الحديـث عن موقفه من اللُّغَة عَامَّة لندلف إلى موقفـه من العَرَبِيّـة خَاصّة وقفنا على جملةٍ مـن القضايا التي تتناول موقف الشّـعوب غـير العَرَبِيّـة مـن تعلـم العَرَبِيّة إثـر الفتوحات الإسـلامِيّة، وعلاقـة اللُّغَـة العَرَبِيّـة بغيرهـا من اللُّغَات، وعلاقتها بالحَضَارَة الإنسَـانِيّة، وعلاقتها بالعلم والإبداع، والازدواجيّة اللُّغَوِيّة، والمشـكلات التـي واجهت العَرَبِيّة في مسـيرتها، وكيف تغلَّبت عليها، وما النّظرةُ المُستَقبَلِيّة لها؟

واللُّغَةُ -لديه- هي معالمُ الحَضَارَة كلُّها؟، فإذا قيل: الحَضَارَة، الكتب «الأديان... الإنسـان... فإنَّ المـراد هـو اللُّغَة، فـ «كل معالم الحَضَارَة سـواء عددت اللُّغَة وسيلة أو غاية أو وعاء أو وسيطًا فإنَّ المآل إليها والمبدأ منها » [٩] .

فـإذا كان الأمـر كذلك فيما يتعلق باللُّغَة عَامَّة فـإنَّ علاقـة لغتنـا العَرَبِيّـة بالحَضَـارَة العَرَبِيّة والإسـلامِيّة علاقة جدلية، ضاربة الجذور، فاللُّغَة العَرَبِيّـة شـعار الإسـلام وأهلـه، فلا إسـلام بلا قُرآن، ولا قُرآنَ بلا لُغَـة[١٠]. فعلاقة اللُّغَة العَرَبِيّة بالإسـلام ليسـت علاقة ظاهريّـة تَعبديّـة، لَكنَّها علاقة أعمـق من هذا بكثير، فارتباطها بالإسـلام ارتباط اللَّفْظ بالمعنى أو ارتباط الرّوح بالجسـد، والأدلـة عـلى ذلـك كله بيّنـة، فقـد وردت آثار في الحـض على تعلّـم اللُّغَـة العَرَبِيّة وسـيلة للفهم، وتحض أيضًا على تعلّم مطلق اللُّغَة العَرَبِيّة؛ لأنها جزء مـن الدّين[١١]، فالإسـلام ينقل المُسـلِمين إلى العُرُوبَة؛ لارتباط العُرُوبَة باللسان دون النّسب أو العرق. ولهذا الارتباط الوشيج بين اللُّغَة العروبية وروح الإسلام أفرد الفقهاء والأصوليون مساحات واسعة من تصانيفهم للسان العَرَبِيّ بما أنه جسر العبور إلى الإسـلام[١٢]. وخُصُوصِيّـة العلاقة بين العَرَبِيّة والحَضَارَة الإسلامِيّة مرجعها تداخل دور اللُّغَة والإسلام وصعوبة الفصل بين الدّورين.

لقـد ذهـب غوسـتاف لوبون إلى أن الشّـعوب غير العَرَبِيّة أقبلت على تعلُّم العَرَبِيّة إثر الفتوحاتِ الإسلامِيّة، لكنَّ انتشارَ الإسلام كان غير متوازٍ مع انتشار اللُّغَة العَرَبِيّة، وهذا مرجعه صعوبة تحوُّل الشّـعوب عن لغتها الأصلية بيُسر؛ لأنَّ هذا جانب مما يسـمَّى التّطـور اللُّغَوِيّ الـذي لا يتمّ في لمحة عين، والدَّليـل على ذلك أنَّ أبا حنيفـةَ النّعمانَ قد أفتى بجوازِ قراءةِ القُرآنِ في الصّلاةِ بالفارسيَّة لَمَنْ كان عاجزًا عن القراءةِ بالعَرَبِيّةِ أو غيرَ عاجزٍ، مع كراهةِ ذلـك عند عدم العجزِ. وفتـوى أبي حنيفةَ

(٧) بحوث في اللُّغَة، والنَّحْو، والبَلاغَة، ص: ٣٤. والمسـألة مبسـوطة في: المسـتصفى مـن علـم الأصـول ٣: ٧- ١١، وانظر: حواشي المسألة.

(٨)بحوث في اللُّغَة والنَّحْو والبَلاغَة، ص: ٣٩.

(٩) المصدر نفسه،، ص: ١٤٠.

(١٠) المصدر نفسه، ص: ٨٥.

(١١) المصدر نفسه، ص: ٧٩.

(١٢) المصدر نفسه، ص: ٨٠.

هذه تُشـير إلى مـدى مُعاناة مُعتنقي الإسـلام من غير العَرَب في تَعلُّـم العَرَبِيّة، وهي فتوى يجب أنْ تُوضَع في إطارِها الزَّمنيَ والاجْتِمَاعِيّ[١٣].

ومـن هنا نظـر النّبهَـان إلى مقولة غوسـتاف لوبـون في إقبال الشّـعوب غير العَرَبِيّـة على تعلّم العَرَبِيّـة نظـرة مَوضُوعِيّة، فهي مقولـةٌ لا تخلو من الصّحةِ في إطارها العَامّ، لَكنَّها تبسِّـط الأمور أكثـر من اللازم، وتحمل الأمور على غير حقيقتها. وتشير أيضًا إلى أن فتوى أبي حنيفة تكتسب بعدًا خاصًا سـياقيها الاجْتِمَاعِيّ واللُّغَـوِيّ، فيبتعد بنا عن الإغراق في تبسـيط الأمور كما توحي به عبارة (لوبون) السّابقة[١٤].

لقد أخذتِ العَرَبِيّةُ منذ القرن الهِجرِيّ الأوّل تنمو نمـوًّا داخليًا فاعلًا ومنفعلًا، وهـو نموٌّ دعت إليه ملابسات اجْتِمَاعِيّة وسِيَاسِيّة واقتصاديّة، فكانت ولادة علـوم اللُّغَـة في بداياتها لتكـون جسرًا يعبرُ عليـه المُتَعَلِّمون غـير العَرَب إلى بسـتان العَرَبِيّة، ولتسـاعد على تعلّمها، فكان من مظاهر ذلك قيام عبـد الملك بـن مـروان (ت ٨٦هـ)، وأخـوه عبد العزيز (ت ١٠١هـ) والحجّاج (ت نحو ٩٥هـ) بتَوجيهِ النّاسِ إلى تعريب الدّواوين[١٥].

وفي البَحـث عـن أثـر العَرَبِيّـة في الحَضَـارَة الإسـلامِيّة لا بدَّ من الإحاطةِ بمَدَى الإنجازاتِ التي قدّمتهـا اللُّغَة العَرَبِيّة لهذه الحَضَارَة، ذلك أَنَّ أَثَرَ اللُّغَة لا يَتَأَتَّى مِن قيمتها الذَاتِيّة وما يُسبغُهُ عليها النّاطقونَ من فضائلَ وقَداسة [١٦].

لقد بـدأ تطويعُ العَرَبِيّة لتصبح لُغَة العلمِ منذُ القرن الأوّل، وسـاعدَ على ذلـك النّصُوص الدّينيّة المُوَجَّهـة إلى توحيد اللسـان العَرَبِيّ، فوسـم ذلك الحَضَارَة الإسـلامِيّة بميسـم العُرُوبَة؛ ولهذا نظر المُسلِمون إلى أن العَرَبِيّة وتعلُّمَها من صُلب الدّين، ويُكـرهُ لغـير العَرَبِـيّ أَنْ يَتَعَبَّـدَ أَو يتكلَّـمَ بغيرِ العَرَبِيّـة، ولذلـك « كان الطّريقُ الحَسَـن اعتيادَ الخِطـاب بالعَرَبِيّة حتى يتلقَّفَها الصّغار في الدّور والمَكاتب فيظهر شـعارُ الإسـلام وأهلـه، ويكونُ ذلك أسـهلَ على أهلِ الإسلام في فقهِ معاني الكِتابِ والسُّنَّةِ وكلامِ السّلف »[١٧].

لقـد احتلَّـتِ العَرَبِيّةُ المنزلةَ الأُولَى عِلميّا وأدَبِيّا، وأصبحـتِ اللُّغَة الرّئيسـة بل الوحيـدة في ارتقاء السّـلم الاجْتِمَاعِـيّ والعِلمِـيّ، وانحـسرت مكانة الكاتـب اليُونَانِيّ عمّا كانت عليـه، وغدَت العَرَبِيّة هـي الأداة الموحّدة لفكرِ شـعوبٍ متباعدة جمعتْ العَرَبِيّـةُ فيما بينَهـا. فكان هذا التّوحيـد اللُّغَوِيُّ أضخمَ إنجـازٍ حققته العَرَبِيّـة في القرن الهِجرِيّ الأول، وكان هـذا التّوحيـد دافعًا إلى إصلاح طرقِ الكِتابـة بالإعجـامِ والضَّبـطِ ممـا يـسَّر تعلّمَها، واتسـاعَ رقعةِ النّاطقينَ بالعَرَبِيّـة نتيجةَ اعتراف الفئات المعتنقة الإسلامَ بالعَرَبِيّة، وتوجه الشّعوب نحو تعلّمها، وقرار التّعريب الذي سبقت الإشارة إليه هـو قرار لا ينفصل عن التّفاعلات الحَضَارِيّة واللُّغَوِيّـة على الأرض العَرَبِيّة؛ فقـد غدت العَرَبِيّة المثـل اللُّغَـوِيّ الأعـلى، وأداة التّطـوّر الحَضَارِيّ والعِلمِيّ إذ استوعبت العَرَبِيّة علومًا وفنونًا جديدة (علوم اللسـان، الطّبيعة، الرّياضة)، واسـتطاعت التّعبير عن مفاهيم مجردة ومعانٍ دقيقة، فانتقلت

(١٣) بحوثٌ في اللُّغَةِ، والنَّحْو، والبَلاغَة، ص ١٤.

(١٤) المَصدَرُ نَفسُه، ص: ٢٤.

(١٥) المَصدَرُ نَفسُه، ص: ٤٥.

(١٦) المَصدَرُ نَفسُه، ص: ٤٣.

(١٧) اقتضاء الصراط المستقيم، ص: ٨٩.

بذلك من عموميات المَعرِفَة إلى دقائق العلم، وغدت لُغَــة الإبداع الوحيــدة في الحَضَارَة الإســلامِيّة[١٨]. ويقــدِّم التّاريخ نماذج على هذا الإبداع الحَضَارِيّ، فكتب مُحَمَّد بــن موسى الخوارزميّ (ت ٢٣٢هــ) كتــاب (الجَــبر والمُقَابَلــة)، وكتــبَ ابنُ ســينا (ت ٤٢٨هــ) (رســالة في أســبابِ حــدوثِ الحُروف)، فكانــت لغتهمــا «الغاية في الدّقــة في تعبيرها عن دقائق العلم، والغاية في المُرُونَة والقدرة على وضع المُصْطَلَــح »[١٩]، فتخطَّــت العَرَبِيّة بذلك مضامينَ وطرائقَ تعبيرِ ما كانت عليه في الجَاهليّة[٢٠].

وكانت مُشْــكِلَة المُصْطَلَــح أهمَّ ما واجَهَ العَرَبِيّة إبّانَ الوحدةِ اللُّغَوِيّة، فقد وجدتْ العَرَبِيّة نفسَــها أمــامَ تطــوّرات عِلميّــة تُحوجُهــا إلى مُصْطَلَحاتٍ جديدة، فحُلَّــت القَضِيَّة بكثيرٍ مــن المُرُونَة بتأثير الخصائــص الذَاتِيّــة للغــة العَرَبِيّة التــي أعانتها عــلى التّكيُّف، ووَلَّــدتْ لعلومٍ لم يكــنْ لها به عهدٌ مُصْطَلَحــاتٍ دقيقــةً، وكان الاشــتقاق أهــم هذه المقوِّمات التي مازت اللُّغَة العَرَبِيّة. ثم كان المسلكُ الآخــر، مســلك التّعريــب لمُصْطَلَحــاتٍ تأبَّت على التّرجمة. ولم تســتطع مُشْــكِلَة المُصْطَلَح هذه أن تحــدّ من القدرة الإبداعيَّة للعَرَبِيّة، ولم تُخفْ هذه المُشْــكِلَة لغتنا، وما ذلك إلاّ لما تستند إليه لغتنا من عراقة وتجذّر، فكان من باب أَولى أَلّا تقفَ المُشْكِلَة المُصْطَلَحيّــة حجــرَ عثرةٍ أمام التّطــوّر اللُّغَوِيّ في لغتِنــا التي أصبحَ لها قواعدها الفكرية المقيســة. وما إن أطلَّ القرن الرّابع الهِجرِيّ حتى كانت لُغَة العلــوم قد ضربت بجرانها وعرفت الاســتقرار في مُصْطَلَحاتها حتى تُنوسِيَ معناها الأصليّ[٢١].

وقوَّة العَرَبِيّة بقوَّة دولتها، فأكثر ما يسقط من اللُّغَة ويبطل إنَّمَا يكون بســقوط أهلها «ودخول غيرهم عليهم في مســاكنهم، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم، فَإنَّمَا يقيد لُغَة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم»[٢٢] . وليس الأمر كذلك فحسب، بل العَرَبِيّة عامل توحيد المُجتَمَع طبقيًا، لذلك كان النّبهَان يرفضُ الاعتقادَ بوجود طبقة لغوية؛ أي وجــود ألفاظ نبيلة وغير نبيلــة، فقد صــارت اللُّغَة العَرَبِيّــة معلمًا واضحًا لذوبــان الفــوارق الدّمويــة والعرقيــة إلى جانــب أنهــا أداة تعبير وتواصــل؛ لأنَّ همّ هــذه اللُّغَة أن تسمو بالإنســان الذي يتكلمها إلى سدَّة الحَضَارَة الإنسَانِيّة المزدانة بالقيم العالية[٢٣]. ولذلك يرفض قــول من يقــولُ بالنّبوغ اليُونَانِيّ فحســب بتأثير من ســيطرة المركزيّــة الأوربيّة، فيعــدون العَرَب عالة على الإبــداع اليُونَانِيّ. ولنا في تربع الحَضَارَة العَرَبِيّة الإسلامِيّة على عرش العطاء الإنسَانِيّ خير دليل وأصدق شاهد[٢٤] .

والحفــاظ على هذه اللُّغَة مســؤولية إســلامِيّة لا عَرَبِيّــة فحســب، «فليــس العَــرَب وحدهم هم الذين يطالبون بالحفاظ على العَرَبِيّة وتطوّرها... إن الحفــاظ عــلى العَرَبِيّة مســؤولية إســلامِيّة... وقَضِيَّــة تعريب الحيــاة والعلــوم المُختَلفة يجب أنَ تَكــونَ قَضِيَّة كل بلد إســلامِيّ مع كونها قَضِيَّة البلاد العَرَبِيّة التي تشــتمل على ســدس مســلمي العالم» [٢٥] . فإســلامِيّة نُظُم أي شــعبٍ إســلامِيّ مَنوطــةٌ بمدى اقترابِه من لُغَــة القُرآن، وبالاعتمادِ على هذا الأســاس يُجعــلُ النّاطقــونَ بالعَرَبِيّة في

(١٨) بحوث في اللُّغَة، والنَّحْو، والبَلاغَة، ص: ٥٣.
(١٩) المَصدَرُ نَفسُه، ص: ٥٧.
(٢٠) المَصدَرُ نَفسُه، ص: ٥٨.
(٢١) المَصدَرُ نَفسُه، ص: ٥٥.
(٢٢) الإحكام لابن حزم ١: ٣٧.
(٢٣) بحوث في اللُّغَة، والنَّحْو، والبَلاغَة، ص: ٥١
(٢٤) المصدر نفسه، ص: ٢١.
(٢٥) المصدر نفسه، ص: ٧٩.

مقدمة صفوف المُسلِمين[٢٦].

وبتأثير من إدراك السّياسات الاستعمَارِيّة هذا الأثر الموحِّد لِلُّغةِ سعتْ إلى ترسيخ اللُّغَة بل اللُّغَات المحليّة، وارتبطت لُغَة المُجتَمَعات الإسلامِيّة بلغة الغرب بما أنه المُنتِج لمظاهر الحَضَارَة الماديّة والتّقدم التّقانيّ؛ ذلك أنَّ الذي يفرضُ لُغَة المُصْطَلَح هو الأقوى. وقد بدأ ضعف التّحوّل اللُّغَوِيّ يفتُّ في عضد الحَضَارَة العَرَبِيّة منذ العصر العَبَّاسِيّ الثّاني بسبب ذهاب ريح العَرَب وتحوُّل حضارتهم من مرحلة القوة والسيطرة إلى مرحلة التّبعية. وفي سبيل العودة الحَضَارِيّة العَرَبِيّة إلى مقدّمة الرّكب لا يكفي حسن النّيات، بل لا بد من القرار السِيَاسِيّ الضروري[٢٧].

فالمخاطر تحفّ بحاضر لغتنا العَرَبِيّة، لَكنَّه مع كل ذلك يزخر بالإمكانات المُستَقبَلِيّة ما يدفع إلى التّفاؤل بمستقبل للغتنا الفصيحة بشرط بذل ما يمكن بذله حاضرًا على المستويات كافَّة من قرارات سِيَاسِيّة، وسياسات تعليمية وإعلاميّة. وبشرط تنكب الفهم المومِيائي للغة الذي ينظر إلى اللُّغَة على أنها أجزاء تتركب فيما بينها بصورة اصطلاحية، فلا بد من فَهْمِ اللُّغَة فَهْمًا ديناميًّا[٢٨]، ذلك أن اللُّغَة هي «البيان، والبيان هو الوحدة الإنسَانِيّة التي لا تتجزأ، هو الإنسان رقةً في أفكاره ومشاعره. والإنسان كائن مُجتَمَعي واللُّغَة تعكس هذا الإنسان، وعليها إذن أن تعكس حياة أمته، تلك الأمة الواحدة التي ينتسب إليها المرء ولا ينتسب لغيرها »[٢٩] .

وتأسيسًا على هذه النّظرة المُستَقبَلِيّة المتفائلة لم يكن النّبهَان يرى أي غضاضة في وجود لغتين في مُجتَمَعاتنا: لُغَة رسمية وأخرى متداولة بين طبقات المُجتَمَع كافَّة، ويرد على أولئك الذين يجعلون هذه الازدواجيّة اللُّغَوِيّة مرضًا، فيتناولون لغتنا بالإساءة، لاعتقاده الجازم بأن هذه الازدواجيّة لا تخلو منها لُغَة ما على وجه الأرض، فهي «ظاهرة عَامَّة لها أصولُها النّفسية والاجْتِمَاعِيّة، وليست ذات صبغة مرضيّة كما يحاولون تصويرها إذا تكلموا عن العَرَبِيّة»[٣٠]، فثمةَ فرقٌ بين لُغَةِ المَنطق ولغةِ الانفعال، كما يرى «فندريس»[٣١].

وإذا كنا قد وقفنا على إقرار النّبهَان بوجود مستويين لغويين: مستوًى رسميّ يلتزم اللُّغَة الفصيحة، ومستوى تداوليّ بين عَامَّة النّاس ينحرف انحرافًا كليًّا عن ضوابط المستوى الأول، فليس معنى ذلك أنه يتقبّل استبدال اللُّغَة العَامّيَّة بالفصيحة بدعوى أوهى من خَيط العنكبوتِ يطلقُها المُسْتَشْرِقون ومن يدور في فلكِهم من أبناء العُرُوبَة(!) ولا يتورَّعون عن وصمِ هذه اللُّغَة والأمّة التي تنطقُ بها بكلِّ صفاتِ التّخلف، وما ذلك إلا لالتزامِها بهذه اللُّغَةِ التي كانتْ وستبقى العاملَ الموحد.

وقد وضع النّبهَان أحد هؤلاء الدّعاة[٣٢] من أبناء جلدتنا على السّفود، وحلل خطابه المتهافتَ أفكارًا وبنية، وكشف المغالطاتِ التي اشتملتْ عليها

(٢٦) معالم الشريعة: صبحي الصالح، ص: ٨٣.

(٢٧) بحوث في اللُّغَة، والنَّحْو، والبَلاغَة، ص: ٧٣.

(٢٨) المصدر نفسه، ص: ٧٣-٧٤.

(٢٩) المصدر نفسه ، ص: ٧٤.

(٣٠) بحوث في اللُّغَة، والنَّحْو، والبَلاغَة، ص: ٧١.

(٣١) اللُّغَة لفندريس، ص:٣١.

(٣٢) هو الناقد حنا عبود الذي نشر مقالة بعنوان (اللُّغَة بين الأدب والنقد) في العدد (٢٠٠) من مجلة (المعرفة) السّورية.

مَقالتُــه، وردَّ عــلى مقولاتِه مقولةً مقولــةً، وفكرةً فكرةً، وكواه بمَيسمِ الحقيقة العِلميّة في بحث جاء في عشريــن صفحةً نُــشر في مَجَلَّــة المَعرِفَة، العدد ٢٠٢، سنة ١٩٨٢م بعنوان: (إنَّ العَصا لذي حلمٍ تُقْرع)[٣٣]، فأوفى على الغاية، وردَّ الحقّ إلى نصابِه. فلغَتُنا رمزُ شخصيتنا ومســتودعُ أفكارنا، ومرآة تاريخنــا. وأغرب مــا في الأمر أنَّ هــؤلاءِ الدّعاةَ إلى العَامّيَّة لا يكتبونَ ما يكتبون إلا باللُّغَةِ الفَصيحة، فهــلّا كتبوا باللُّغَة التي يَدعون إليها ليَعرفوا مدى قبول المُتلقين لما تَبنَّوه؟!

ب- مــن قضايا العَرَبِيّة: درسَ في مباحثِ هذا البابِ ما يأتي:

١)التَّذكِير والتّأنيث: أكَّــد فيه أنّ مَبْحَث التَّذكِير والتّأنيث مَبْحَث عــامٌّ في اللُّغَات كلها، وهو مَبْحَث غامــض وله خُصُوصِيّة معينة في كل لُغَة، فالأصل في الألفــاظ المذكّرة والمؤنّثة هو تصــوُّر واضعها، فمــن كان التّأنيثُ عنده هو الأصــلَ أنّثَ والعكسُ صحيــح. لكــن ما حصــلَ مــن تداخــلِ اللَّهَجَات المحتــجّ بهــا دعا ذلــك إلى الاعتراف بمــا ذكر وما أنّث، ومســوِّغ للبحث عــن الأصل في هذه الألفاظ، فليس «الأمر أمر أصل واحد، وإنما هو أمرُ تصوُّر مخالف » [٣٤].

وإذا كان الدّكتــور نبهان رحمه الله قد تحدَّث عن جندرة اللُّغَة العَرَبِيّة فهذا عمل يســجل له لأنَّ هنالــك كثيرين مِمَّن اتّهمــوا العَرَبِيّة بالانحياز إلى الذكوريّة في حين أنهــا تُخصصُ التَّذكِير والتّأنيث في الخطاب وهــو ما لا نجده في غيرها من اللُّغَات، فاللُّغَــة في العَرَبِيّــة يحددهــا جنــس الخطيــب والمخاطب ولا توجد كلمات يُخاطب بها الجنسان معًا كما في الفرنســية مثلًا، والخطاب مســؤولية المُخاطِب لا مسؤولية اللُّغَة.

٢) محاولــة دراســة مَعَايِير الخطــأ في اللُّغَة: وقَضِيَّة التّخطيء والتّصحيح ليست بنت السّاعة، بل هــي قَضِيَّة تعــود إلى القرن الهِجــرِيّ الثّاني، فإنَّ الباحث لن يمــضي طويل وقت حتى يقف في نصوص تراثنا على نماذج من ذلك.

«واللُّغَــة كائــن حي لا يثبت على حــال، وتقييد اللُّغَة باســتعمالات القدماء لها مســلك غير قويم، ولا تصــب في مصلحــة اللُّغَة، فاللُّغَــة لا تنمو على أيدي كتابها وعلمائها وشــعرائها، على أيدي علماء الأطباء وأصحاب القانون وعلوم الطّبيعة وســائر أنواع العلــوم... تنمو صيغهــا وتراكيبها وتغتني دلالاتها بعناصر جديدة، ويتســع في اشتقاقها وفي صيغ جموعها ومَصَادِرها »[٣٥].

«فــإذا كان لأصحــاب التّصحيــح اللُّغَــوِيّ ما يتذرعون به من أســباب قد يكون له ما يســوّغها، لكــن ليســت مطــردة، وقــد أوقعتهــم في مزالــق وجعلتهم ينسبون الصّحيح إلى الغلط » [٣٦] وذلك لأنَّ اســتقراءهم كان ناقصًــا، فليســت المُعجَمات وحدها هي مناجم اللُّغَة ليقتصر في ذلك عليها، بل لا بد من اســتقراء كتب الأدبــاء الكبار، فهي التي أحيــا أصحابها اللُّغَة بالاســتعمال الحي الذي هو مســلك اغتناء العلوم كافَّة. ولذلــك يجب على مَنْ يتصــدَّر لإصدار أحــكام التّخطئــة أو التّصحيح، أو ما ســمَّاه الدّكتور النّبهَان بالمنقب اللُّغَوِيّ= أن ينظر إلى الاستعمال الحي للغة، وأن يؤخذ في اللُّغَة

(٣٣) مجلــة المعرفــة، العــدد ٢٠٢، ١٩٨٢، ص: ١٨٩-٢٠٢.

(٣٤) بحوث في اللُّغَة والنَّحْو والبَلاغَة، ص: ٩٩.

(٣٥) بحوث في اللُّغَة، والنَّحْو، والبَلاغَة، ص:١١١.

(٣٦) المصدر نفسه، ص: ١٢١.

ما أخذ في الفقه.

إن الأصل في الأشـياء الإباحـة، فكذلك الأصل فيما يكتب الأديب والعالـم هو الصّواب، فإذا جنح عن ذلك فلعلّة ما[٣٧].

ويجب على هذا المنقب اللُّغَويّ إسقاط القدسية التي أضفاها على أولئك الأعراب أو الشّعراء الذين وضعوا داخل حدود عـصر الاحتجاج. فهؤلاء على الرّغم من عزلتهم – فيما زعموا – أو من سليقتهم رمـي الكثير منهم باللحـن... وربما كان من كبار شـعرائنا المتأخرين والمُعَاصِرين مَنْ لا يقل عنهم فصاحـة وتمكنًـا، ولا ينكر هذا إلا مَـنْ يقول: إن القدماء وحدهم هم العرب [٣٨] .

«ونهضـة اللُّغَـة –كما يرى الدّكتـور النّبهَان– إنَّمَا تكون بنشر التّعبير الصّحيح على السّنة المعلم والمذيع والممثل، فتقديم الفصحى عن طريق أولئك يقـدم جليل الخدمة للغـة، وليس عن طريق نشر كتيب ينطوي على تصحيح هذا التّركيب أو تخطئة ذاك. ولا يجـوز للمنقب اللُّغَـويّ الاقتصار على ما حوته بطـون المعاجم، فليـس المُعجَم هـو اللُّغَة، بل اللُّغَـة أكبر منه، وهي التـي كونته، وهي التي تغنيه وترفده وتغذوه بكل جديد. وإنّ المُعجَم هو الجانـب القارّ من اللُّغَة، ولا ينمـو إلا بنموها على السّنة النّاطقين بها »[٣٩]. فصدر اللُّغَة أكثر رحابة من أن يقتصر فيه على ما ضمته المعاجم، وهي لم تضم اللُّغَة كلها غير شـك.. فما الذي سوَّغ لامرئ القيس أن يستعمل في شعره ألفاظًا ليست بعَرَبِيّة ويمنع شـاعرًا مثل نزار قباني من استعمال لفظ فستان في سياق شعري لا يتقبل غيره[٤٠].

إنَّ من أراد أن يصل إلى رتبة الفقيه اللُّغَوِيّ من خلال الاتكاء على المُعجَم فحسـب، ولا يعني نفسه مخر عبـاب التّرَاث وكتب المتأخريـن والمُعَاصِرين أشـبه بالفقيه الذي يحرِّم الحلال، وهو مسـلك لا تقل شناعته عن تحليل الحرام[٤١].

وكل أولئـك مفصـح عـن فكـر نـيّر يتمتع به الدّكتور النّبهَان، وأفق واسع يتصف به، وواقعية لغويـة يؤمن بها وبأثرها في نمـو لغتنا، لا الحَجْرَ عليها والتّضييق، فليتسـع صـدر اللُّغَة لقادم من التّعريب أو التّرجمة مادام هذا القادم منسجمًا مع قوانـين لغتنا وأصول تراكيبها، وأفاد عليها معنى لم تعرفه من قبل[٤٢] ، والقُرآن الكريم خير شـاهد على هذا الاتساع الإيجابي والأفق الواسع.

٣) المشـترك اللَّفْظِـيّ في القُـرآن: وهـي قَضِيَّة لغوية عَامَّة، يراد بمُصْطَلَحها دلالة اللَّفْظ على غير معنى، وقـد يكون بين هذه المعانـي ترابط أو لا. والكلمة في ذاتها لا تحمل هذه الدّلالات كلها، ولكن السّياق هو الذي يعطيها معنى جديدًا.

وقد عرض العلماء للقَضِيَّة وخصوها بالتصنيف بدءًا بمقاتل بن سـلمان البلخيّ (ت ١٥٠هـ) إلى السّـيوطيّ (ت ٩١١هـ) وانتهاء بمَجمَـع اللُّغَة العَرَبِيّة القاهري الذي أصدرَ مُعجَم ألفاظ القُرآن الكريم. وكل أولئك لم يعرضوا للاشـتراك اللَّفْظِيّ تنظيريًـا ولم يقفوا عنـدَ رأي ابن دُرُسـتويه (ت ٣٤٧هـ) الذي ضيق مدلول هذا المُصْطَلَح، فكانت نظرتهم إلى المَسْـأَلَة نظرة واقعيـة تقر بوجودها

(٣٧) بحوث في اللُّغَة، والنَّحْو، والبَلاغَة، ص: ١٢٢.

(٣٨) المصدر نفسهُ، ص: ١٢٢.

(٣٩) المصدر نفسه، ص: ١٢٣.

(٤٠) المصدر نفسه، ص: ١٢١.

(٤١) بحوث في اللُّغَة، والنَّحْو، والبَلاغَة، ص: ١٢٤.

(٤٢) المصدر نفسه، ص: ١٢١.

سواء أكان بين معاني الكلمة معنى عام أم لا.

وارتـأى الدّكتور النّبهَان أن يتوقف عند مُعجَم ألفـاظ القُرآن السّـابق الذكر الـذي يقرُّ واضعوه ضمنيًّـا بواقعيـة القَضِيَّـة ومعالجتهـا، وفي ذلك كله كان المعوَّل فيه على التّعبير والسـياق وانتقى مـن ذلك كلمة (ظن) ليحللها تحليلًا يكشـف عن منهج واضعـي المُعجَم، فخلـص إلى أنهم – مثلًا – يـسردونَ الكلمةَ مثـل كلمة (ظـن) ويوردون مشـتقاتها كلهـا ويدلون على السّـورة ورقم الآية ويهملون النّصّ على المعنـى المراد معوِّلين في ذلك عـلى المقدمة العَامَّة التـي وضعوها للفعل (ظن)، وتاركـين للقارئ أو المراجـع الاجتهاد في الوقوف على المراد من الكلمة في مواضع ورودها في كل آية. وقد رأى أنَ يَكونَ المُعجَم مبنيًّا على الأصول الآتية:

• اقـتران الكلمة بالمعنى المـراد في كل موضع ترد فيه.

• تقسيم الآيات إلى مجموعات عند كثرتها.

• ذكر كل مجموعـة ذكرت فيها الكلمة المقصودة بمعنى واحد.

وبهذا يكون المراجع مكتفيًا بالمُعجَم غير محتاج إلى غـيره، وذلك أن المُعجَم ليـس مُعجَم لغة، فقد أفاد أصحابه من ميادين مُعجَمية أخرى، كمعاجم المُصْطَلَحـات، مثل الكليات لأبي البقاء، وكشـاف اصطلاحات الفنون للتهانوي[٤٣].

٤) الأصـوات بين علماء اللُّغَـة والتّجويد: مازَ فيه مسـتويين من الدّراسة الصّوتية: منهج علماء النّحْو والصّرف، ومنهج علماء التّجويد. ودراسـة الأول دراسة صرفية تهتم بالإبدال وحروف الزيادة وغير ذلك، وأما دراسـة علمـاء التّجويد فاتجاهها اتجـاه تطبيقي للأصـوات وآلية النّطـق، وما قد يطرأ عليها من خلـل ومعالجة ذلك. وقد ارتبطت هـذه الغايـة بموقف تربـوي أخلاقـي إذ أوجبوا أخذ القُرآن مـن أفواه المتقنين روايـة ودراية.[٤٤] «فلعلماء التّجويد منهج صوتي واضح الملامح، له مُصْطَلَحاتـه ومباحثه وغايتـه »[٤٥] . وقد قادتهم مباحثهـم التّحليلية إلى نتائج مهمة جدًا في قضايا صوتية كثيرة[٤٦] .

ولـم يكـن ما كتبـه الدّكتـور النّبهَـان إلَّا لفتًا للأذهـان إلى أهمية هذا المَوْلج عَـسَى أَنْ يَجِيءَ مَنْ يبحـث ويقارن بين ما انتهى إليـه علماء التّجويد ويقارنـه بما آل إليـه علم الأصـوات الحديث مِنْ نتائج، وما بذله أساطينه من جهود.

ولعـلَّ أهـم ما يلحظ على هـذا البَحث الواقعية البَحثية التي يتمتع بها الدّكتور النّبهَان من جهة، إذ أقـرَّ بِجِدَّةِ قراءاته في هذه البابة، فلم يجعل من نفسه فاتح مغاليق هذا الباحث، بل تترك مستقبل البَحث لرائد يرود الطّريق متسـلحًا بما يجب من المَعرِفَـة الأصيلة والحديثـة، وبذلك تكون أحكامه دقيقةً عِلمِيّةً.

ت-النحـو العَرَبِـيّ: ضم هذا القسـم بحثين هما:

• أصالة النّحْو العَرَبِيّ.

• النحو والحديث النّبوي الشّريف.

وفيهمـا بسـط عددًا من القضايـا التي تتناول نشـأة النّحْو العَرَبِيّ وأسباب هذه النّشأة، وعلاقة هذه النّشأة وتأثرها بالنحو اليُونَانِيّ.

ويمكن تلخيص هذه القضايا فيما يأتي:

١- النشـأة الذَاتِيّة للنّحو العَرَبِيّ، فنشـأته نشأة

(٤٣) بحوث في اللُّغَة والنَّحْو والبَلاغَة، ص: ١٣٥.

(٤٤) بحوث في اللُّغَة، والنَّحْو، والبَلاغَة، ص: ١٤٨.

(٤٥) المصدر نفسه، ص: ١٤٨.

(٤٦) المصدر نفسه، ص: ١٤٩.

عَرَبِيّة محضة ليس لأي نحو من الأنحاء أثر فيها، بل إنه نحْونا العَرَبِيّ هو الذي أثّر في تدوين أنحاء اللُّغَات السّامية الأخرى، وساير في تطوّره العلوم الإسلامِيّة الأخرى وفق ما تفرضه طبيعة الحياة المتطوّرة ولا يندّ عن المنطق العقلي[٤٧] .

أما ادّعاء ولادة النّحْو العَرَبِيّ بتأثير من النّحْو اليُونَانِيّ فمقولة لا تصمد أمام البَحث والتّدقيق، وهي مقولة عائدة إلى تأثر القائلين بها بفكرة المركزية الأوربية، إذ عدّوا أنفسهم سادة العالم، وورثة الفكر والحَضَارَة اليُونَانِيّة، لذلك حكّموا الثّقَافة اليُونَانِيّة القديمة في ثقافات غيرهم من الشّعوب، وجعلوا هذه الأخيرة عالة على الثّقَافة اليُونَانِيّة. وكل ذلك ناجم عن تأثير المركزية الأوربية إبّان الصّعود الاِستعمَارِيّ -على ما ذكرنا غير مرّة- وادّعائها وراثة الثّقَافة اليُونَانِيّة وتنكرها للحضارات الأخرى. و«النهضة الأوربية في جانبيها العِلمِيّ والحَضَارِيّ بوجه عام ليست أكثر من ولد عاق شاء أن ينكر أباه وينتسب إلى أحد أجداده ويدعي لهم كل فضلٍ وكل سبقٍ، وقام تلامذة الأوربيين في عالمنا العَرَبِيّ ينشرون ما تلقنوه من أساتذتهم، فأصبحوا يردون كل فضل إلى اليونان ثم إلى أوربا »[٤٨] .

٢- المصادفة لا تصنع علمًا: وقف النّبهَان موقف الرّافض للقول بنشأة النّحْو من جراء الطّفرة أو المصادفة؛ لذا سجَّل إنكاره للاعتقاد بما أُشيع عن نشأة النّحْو نتيجة سماع أبي الأسود الدّؤلي لحنًا في النّصّ القُرآني. وهذا اللحن في القُرآن يمكن جعله حافزًا أو مثيرًا على وضع رسالة مقتضبة تكون عونًا للمُتَعَلِّمِيّن على تعرف المبادئ الأساسية وتجنب الوقوع في اللحن، « أما أن يؤلف كتاب شامل ككتاب سيبويه فنقول: إنه صُنِّف لصيانة اللسان من اللحن فهذا أمر لا تقرّه طبيعة الكتاب ولا مادته »[٤٩]. إن وضع الكتاب يمثِّل مسلكًا إلى أمرين[٥٠]:

- فهم الجملة العَرَبِيّة عَامَّة.
- فهم الجملة القُرآنية حصرًا.

فالبناء الفكري الدّقيق للكتاب، والمنهجيَّة الصّارمة يعلِّلان بحق الخط التّطوّري للنحو العَرَبِيّ بدءًا بأوليات أبي الأسود إلى أن بلغ ذروة التّطور في الكتاب[٥١] .

ث- الدراسات الحديثيّة: عرَضَ في هذا القسمِ لَموقف النُّحاة من الاحتجاج بالحديثِ النّبوي في تأصيل قواعد اللُّغَة العَرَبِيّة. وهي قَضِيَّة قديمة جديدة، فقد انتهى النّبهَان إلى أنَّ الاحتجاجَ بالحديث النّبوي كان أصلًا لا محيدَ عنه في الاحتجاجِ للقاعدةِ النّحويّة، وأنَّ بعض متقدمي النّحاة ومتأخريهم لم يهملوا توظيف الحديث النّبوي كلّه، لكنهم ركزوا جهودهم على ما يشتمل من مشكلات تكون ميدانًا لتعدد التّوجيهات والتّأويلات، فهم «لم يهملوا الأحاديث التي وجدوا فيها أسلوبًا نحْويًا جديدًا، أو أداة له لها معنى انفرد به هذا الحديث »[٥٢] . فالمتون الحديثية مناجم ثرّة بكنوز «لن يعود منتجعها بخفي حنين، ولن يرجَع قاصدها خالي الوفاض، وإنما يعود وقد صّفِرَ وطابه، وأمرع جنابه »[٥٣] .

(٤٧) بحوث في اللُّغَة، والنَّحْو، والبَلاغَة، ص: ١٥٤ – ١٥٦.
(٤٨) المصدر نفسه، ص: ٢٢.

(٤٩) بحوث في اللُّغَة، والنَّحْو، والبَلاغَة، ص: ١٥٤.
(٥٠) هما مقولتان للدكتور عبده الراجحي تبنّاهما الدكتور النبهان. انظر: النحو العَرَبِيّ والدرس الحديث، ص: ١١، وفقه اللُّغَة في الكتب العَرَبِيّة، ص: ٣٥.
(٥١) بحوث في اللُّغَة، والنَّحْو، والبَلاغَة، ص: ١٥٤.
(٥٢) المصدر نفسه، ص: ١٧٧.
(٥٣) المصدر نفسه، ص: ١٨٠.

ومن الأمثلة المضروبة على الفائدة التي يمكن أن يجنيها دارس الحديث اكتشاف أساليب حديثية نادرة؛ ودقة في استخدام الرّوابط والأدب، فلفظ (بَيْدَ) الاستثنائية لا تنحصر دلالاتها السّياقية في دلالة واحدة، فقد جاءت في الحديث: (أنا أفصح العَرَب بَيْد أني من قريش) بدلالاتٍ ثلاث، فهي بمعنى (غير) أو (من أجل) و (على)، وهذا دليل سعة. ومثلها (لمّا) بِمعنى (إلّا)، وهي قليلة الورود بهذا المعنى، وفي هذا إغناء للأداة (لما) بمعنى جديد قلما تعرف به.

ومما يفاد من الدّراسات الحديثية التّطبيقية في تعديل جزئي لقاعدة عَامَّة إذا يتعذّر تعديل القاعدة كلها، ومن نماذج ذلك حذف نون الرّفع بلا جازم ولا ناصب إذا قارنت (نون الوقاية)، إذ يمنع النّحاة حذفها إلا بجازم أو ناصب، وورد في الحديث ما يناقض ذلك، فهل نرفض الحديث من أجل قاعدة نحوية قامت على استقراء ناقص، أم نعدّل القاعدة تعديلًا جزئيًا وبذلك نتخلص من رمي ما خرج على القاعدة بالشذوذ[٥٤] .

وقد عضد رأيه السّابق بقول نفر من صحابة النّبيّ(ﷺ) رواه الشّافعي -رحمه الله- في كتابه (الرسالة)، وهو: (الأقراء: الحيض، فلا يحلوا المطلقة حتى تغتسل من الحيضة الثّالثة). وقد علق الشّيخ أحمَد شاكر بقوله: إنه حذف للتخفيف[٥٥].

وعلى الجهود التّطبيقيَّة الرّائدة في دراسة الاحتجاج بالحديث النّبوي الشّريف المعوَّل في قطاف ثمرات هذه الدّراسات[٥٦] . والأخذ بما تتمخّض عنه هذه الدّراسات التّطبيقية مَعْلم من معالم الدّرس العِلمِيّ المنفتح عند النّبهَان، إذ الميدان رحيب، ولا يحتاج إلا إلى جهود تخلص النّية والعمل معًا في الوصول إلى الحقائق المطّردة.

ج- المجاز في الحديث النّبويّ: بيّن في أبحاث هذا القسم الثّلاثة وجوب عدم الاقتصار على التّنظير المجرَّد في دراسة المجاز، وأن في اتباع الطّريقة المدرسية في إجراء المجاز المدرسية تضييعا لمعالم جمالية المجاز وطمسًا لمعالمها، لأنَّ للمجاز سرًّا لا تكشف عنه الطّريقة المدرسية، ولأن بلاغته في الحديث النّبوي تنأى به عن الشّكلانية الزخرفية، «فهي مجازات نابعة من البصيرة الفذّة، وتبرز بصفتها نمطًا من أنماط الإدراك الحي الذي يعرف أثر مواقع العلم في السّامعين »[٥٧] .

ورفد ذلك بنماذج تطبيقية تظهر المجاز النّبوي، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «جعل الله فقرًا بين عينيه »، وخلص بعد تحليله والكشف عن مخبآته إلى إعلاء شأنه فقال: «هو ضرب من السّحر البياني الرّفيع النّافذ إلى دخائل النّفوس وخباياها ومثل هذا المجاز لم ينبت إلا بعد المعاناة والمَعرِفَة النّافذة »[٥٨] . فهذه دعوة إلى استكناه المجاز والانفعال بجماليته والتّوقف عند حدود الجمال والانفعال به من دون الافتئات عليه بشرحه وإجرائه كما هي الحال عند إجراءات التّشابيه والاستعارات والكنايات بالطريقة المدرسية المعروفة التي تقتل المجاز ولا تكشف سرَّ جماله.

ح- النصُّ وقضاياه: بسط النّبهَان في هذا القسم جملة قضايا، منها:

١.وحدوية النّصّ: ومثَّل لذلك بقول ابن حزم: «إنَّ القَضِيَّة لا تعطيك إلا نفسها »[٥٩] ، وقول

(٥٤) انظر: المصدر نفسه، ص: ١٧٨.

(٥٥) يريد بذلك حذف نون الرفع من (يحلوا) والأصل: (لا يحلّون). بحوث في اللُّغَة، والنَّحْو، والبَلاغَة، ص: ١٧٨.

(٥٦) المصدر نفسه، ص: ١٧٦.

(٥٧) المصدر نفسه، ص: ٢١٢.

(٥٨) المصدر نفسه، ص: ٢١٤.

(٥٩) المصدر نفسه، ص: ٢١٤

ابن سـينا: «... كما يجب أنَ يَكونَ الكلام محدودًا من جهـة اللَّفْظ كذلك يجب أنَ يَكونَ محدودًا من جهة المعنى، ويكون فيه من المعاني قدر ما يوافق الغرض ولا يتعداه إلى أحـوال وأغراض للمعقول فيه خارجة عنه »[٦٠] . والمراد بذلك التّناسـب بين اللَّفْظ والمعنى، فلا يكون اللَّفْظ فائضًا عن المعنى، ولا المعنى مترهلًا فوق ما يحتمله اللَّفْظ.

وهـذا كلام لا غبـار عليه في الجانـب الإخباري الوظيفـي للغـة، «أمـا اللُّغَة من حيـث وظيفتها الإنشـائية فهي أشـمل وأكبر ». ومقولتا ابن حزم وابن سـينا تصح على الـكلام الوظيفي الإخباري لا عـلى الكلام الفنـي الإبداعي؛ لأنَّ النّـصّ الأدَبِيّ غـير النّـصّ الوظيفيّ، تتجـلى أدَبِيّـة النّصّ «في التّمثيل... لأنَّ التّمثيل يسـتقطب فعاليات نفسية وذهنية، ويفسح مجالًا لقضايا لا يتسع لها صدر المثل »[٦١].

٢. أدَبِيّـة النّص: وعلـوّ الطّبقـة الأدَبِيّة لنص ما تجعله أكثر قابلية للتأويل الذي يسعى إلى ما وراء النّصّ من عوالم، «فأدَبِيّة النّصّ العالية لا تتسـع لأفانـين التّأويـل »[٦٢]، لـذا دعـا إلى الاهتمام بما وراء النّـص، ونظر إلى أن مقتـل النّصّ وفناءه في الشّرح والتّفسـير، فكل محاولة «لتفسير نص ما إنَّمَا هي تعبير عن مدى فقه المفسِّر للنص وشرحه له، وليسـت تفسـيرًا للنص بذاته وكما أراده عليه واضعه »[٦٣]. ولذا من الخطورة بمكان التّعويل في فهم النّصّ على الشّروح؛ لأنَّ «النّصّ شيء، والشرح شيء آخر مباين »[٦٤] .

٣. ديمومـة النّـصّ: ويتصـف النّـصّ بالثبـات والديمومـة، أما الـذي يتحوَّل ويتبـدَّل فهو فهم النّصّ. ففي النّصّ تظهـر عبقرية المبدع، في حين «أن الشّرح يبرز محاولة قارئ يسعى في شرحه إلى المعانـاة التي عاناها تجـاه النّصّ. ومن هنا كانت دعوات الإصلاحيين إلى العودة إلى النّصّ ذاته لا إلى المتون التي شرحته »[٦٥].

٤. أثـر الـشّرح في دفـن الإبداع: وتظهـر المفارقة بين النّصّ وتفسـيره لـدى تصفح عدد من شروح الدّواويـن الشّـعرية، كشرح ثعلب ديـوانَ زهير، وشرح الأعلـم له أيضًـا، فلن «نبذل جهـدًا كبيرًا لنكتشـف أنّه في الشّرح والتّفسـير يُدْفـن الإبداع، ويتحـول التّوتـر العصبـي الحـي في النّـصّ إلى عبـارات بليدة »[٦٦]. فإذا كان للتفسـير من مهمة مـا فَإنَّمَا هي مهمة تعليمية فحسـب وهي مظهر تطور الفهم الإنسَانِيّ خلال أجيال[٦٧].

٥. الفرق بين النّصّ الفنيّ والنّصّ الوظيفيّ: فليس بخاف البون الشّاسع والمدى المتطاول بين الشّعر وانزياحاتـه الفنية وبـين الكلام الإخبـاري الذي يتغيَّا نقل معلومة ما، فالوظيفة « الإنشائية تقوم أساسًا على مغايرة وحدوية البعد الدّلالي»[٦٨]، ذلك أن الإبـداع الفني إنَّمَا يتجـلى في انفتاح النّصّ على دلالات مراوغة. وتتأبى الطّبيعة الأدَبِيّة للنص على الوضـوح الذي تمتاز به القَضِيَّـة المنطقية، ولولا هذا التّأبي على الوضـوح المبتذل لغدا النّصّ نصًّا عاديًا وجسدًا خاويًا.

(٦٠)المصدر نفسه، ص: ٢١٤

(٦١) المصدر نفسه، ص: ٢٠٢

(٦٢) المصدر نفسه، ص: ٢٥٦

(٦٣) المصدر نفسه، ص: ٢١٣

(٦٤) المصدر نفسه، ص:٢٣٠

(٦٥)المصدر نفسه، ص: ٢٣٠.

(٦٦) المصدر نفسه، ص: ٢٣٠.

(٦٧) المصدر نفسه، ص: ٢٥٠.

(٦٨) المصدر نفسه، ص: ٢٤٤.

٦. في الـدّرس البلاغي: وبهذا القسـم بلغ الكتاب منتهاه، ووصلت دراسـات النّبهَان فيه خواتيمه. وفي هذا القسـم عرض لخصائـص اللُّغَة العَرَبِيّة، ودعـا إلى نظرة تجديديـة لعلوم البَلَاغَة، فأشـاد بتجربـة أمـين الخـولي وفصَّل القـول في ضرورة تجديد المناهج في دراسة البَلَاغَة، وأثار الانتباه إلى هذه المُشْـكِلَة، ثم كان الاتجاه في بعض الجامعات إلى تدريـس كتـب عبـد القاهـر الجرجانـي بدلًا من كتـب المتأخرين، وهي خطـوة مهمة تعني في جوهرها العودة إلى الينابيع[٦٩].

وهـذه نقلة مهمـة في تجديد الـدّرس البلاغيّ، والبعد بدارسي البَلَاغَة – لا سيما في مرحلة التّعليم الجامعـيّ – عن الاعتنـاء بالحـدود والتّفريعات، فكانت هذه النّقلة مبعث تفاؤل؛ لأنَّ البَلَاغَة تتأبى عـلى الحدود. فقـد ظهرت كتب مؤلفـة ومترجمة درسـت فيها البَلَاغَـة القديمة، وفي الوقت نفسـه اسـتفاد مؤلفوهـا مـن زادهـم في عِلمِـيّ النّفس والجمـال، وما جدَّ من النّظَرِيّـات الأدَبِيّة، فأثاروا مسـائل كانت قـارةً، ففتحـوا بذلـك العيون على عيـوب ومشـكلات كانت غائبـة، وقدَّمـوا أنماطًا جديدة مـن الفهـم اللُّغَـوِيّ والبلاغـي والنّقدي، «ولعلَّ خيوط الضوء النّافذة إلينا من خلال الغيوم تبشر بسطوع فهم متجدد لعلم يتأبى على الحدود والقيود »[٧٠].

وهذا التّفاؤل إنَّمَا توجه إلى الدّرس البلاغيِّ لا إلى البَلَاغَة التّعليمية التي بقيت أشواك العلوم العقلية تكبح جماح التّطور البلاغـي[٧١]. «فمجال التّعلم مـازال على ما هو عليه على الرّغم من المحاولات أو التّجديـد أو النّـداءات، وكلها ترمـي إلى إنقاذ هذا العلم وتجديـده وإغنائه بما يلائـم تطوّر الحياة والعلوم الأخرى » [٧٢] .وهذه نظرة تتفق كثيرًا وما جاءت به البَلَاغَة الحديثة ولا سيما بلاغة الحجاج.

وفي معرض نقد الدّرس البلاغي التّعليمي وجه سـهام نقده إلى ما يسـمَّى « إجراء الاسـتعارة » فرأى فيه هذيانًا لا بدّ من معالجة البَلَاغَة منه. ولا بد من رمـي كثير من الطّحالب التـي علقت بهذا العلـم على مـرّ الأزمنة، ليكون ذلـك مؤذنًا ببلوغ تباشير مستقبل زاهر لهذا العلم الفذ.

تحقيق التّرَاث:

لعـلَّ مجالس جده الشّـيخ أحمَـد النّبهَان هي الأكثر أثرًا في شـخصية النّبهَـان وميله إلى التّرَاث وعشـقه؛ فقد كان الصّبي والفتى الذي يقرأ لجده في كتب الـتّرَاث الصّفراء التي حوتها خزائن جده. ثـم كان مرحلـة في جامعة دِمَشْـق ثـم في مرحلة الدّراسات العليا، فكان أن افتتح مسيرته الدّراسية العليا بتحقيق موسـوعة نحويـة كان الجزء الأول نصيبـه منهـا، وأعني بهـا (الأشـباه والنّظائر في النّحـو) لجلال الدّيـن السّـيوطي (ت ٩١١هـ)، وقد بلغ تعـداد الكتب التي حقّقهـا منفردًا ثلاثة عشر كتابًا، إلى جانب ستة كتب حقّقها بالاشتراك، وهي: (اللبـاب في علل البناء والإعـراب) للعكبريّ (٦١٦هـ)، دار الفكر المُعَـاصِر، بيروت، ١٩٩٥، فقد قاسـمه الكتـاب أسـتاذنا المرحـوم الدّكتور غازي مختـار طليمـات (٢٠٢١م)، و(هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام)، المَجمَع الثّقَافِيّ، أبو ظبي، ٢٠٠٣م، و(حلية الفرسـان وشـعار الشّجعان)، مركـز زايـد للـتراث، ٢٠٠٤م، و(تحفـة الأنفس وشـعار سـكان الأندلـس)، مركـز زايـد للتراث، ٢٠٠٤م، و(تـراث الحـلّاج: أخبـاره، ديوانـه،

(٦٩) المصدر نفسه، ص: ٢٨٥.

(٧٠) المصدر نفسه، ص: ٢٨٥.

(٧١) المصدر نفسه، ص: ٢٨٤

(٧٢) المصدر نفسه، ص: ٢٨٥

طواسينه)، دار الذاكرة، حِمْص، ١٩٩٦م.

وإلى جانب هذه الكتب حقق عددًا من الرّسائل التــي نشرهــا في دوريات محليــة وعَرَبِيّــة، منها: (القصيــدة الحرباوية مع شرحها) للبلطيّ، مَجَلَّة مَجمَع اللُّغَة العَرَبِيّة بدِمَشْــق، ١٩٧٢م، و(الرفدة في معنى وحده) لتقيّ الدّينِ السّبكيّ، مَجَلَّة التّرَاث العَرَبِيّ، العدد (١٧)، ١٩٨٤م، وغيرهما كثير.

توزَّعت جهوده التّرَاثية في مجموعات عدَّة، هي:

- تحقيق المَخْطُوطات.

- نقــد الكتب المحققة والاســتدراك عليها، ومنها: ملاحظات على كتاب الملمَّع للنمري، مَجَلَّة المجمع، ١٩٩٧م، وتعليقــات على كتــاب المصون في الأدب، مَجَلَّة المجمع، ١٩٨٠م، ونظرات في كتاب من غاب عنه المطرب للثعالبي، مَجَلَّة مَجمَع الأردن، ع٤١، سنة١٩٩١م،...

- التعريــف بالكتــب المحققــة وعرضهــا، ومنها: (فنــون الأفنان في عجائب القُــرآن لابن الجوزيّ)، مَجَلَّة نهج الإسلام، ع٣٤، سنة١٩٨٩م، و(الوجيز في ذكــر المجاز والمجيــز للحافظ السّــلفيّ)، مَجَلَّة نهج الإســلام، ع٤٩، سنة ١٩٩٢م، و(كتاب سفر السّــعادة وســفير الإفــادة)، مَجَلَّة عالــم الكتب، مج١١، ع٤، ١٩٩٠م، وقد بلغ عددها حتى ســنة ٢٠٠٠م خمسة وعشرين كتابًا.

وفي ســبيل اســتجلاء نهجــه في تحقيــق التّرَاث وجهوده في ذلك نقف عند ثلاثة من الآثار التّرَاثية التي اســتقل بتحقيقها من جهــة، وتمثّل مراحل مُختَلفة من مسيرته في تحقيق النّصُوص من جهة ثانيــة. وتختلــف في موضوعاتها من جهــة ثالثة. وهذه الآثار هي:

١- الأشــباه والنّظائــر للســيوطي (ت ٩١١هــ)، (الجزء الأول).

٢- إعــراب الحديث النّبوي لأبــي البقاء العكبري (ت ٦١٦هــ).

٣- كشف النّقاب المجازي عن دالية ابن الحجازي لشعيب الكيالي (ت ١١٧٢هــ).

وتفحّــص الآثــار الثّلاثة المشــار إليها يلفتنا إلى أن الدّكتــور النّبهَان لا يرى أن للتحقيق مســطرةً واحدةً تُقَاسُ بها الآثار المَخْطُوطة كلها، أو يطبق معيــار واحد عليهــا جميعًا، بل تنبــئ جهوده في الكتب الثّلاثة عن تَحَكُّمِ المَخْطُوط نفسِــهِ وتطلَّبِهِ منهجًــا معيَّنًــا، في إطــار الأصــول العَامَّــة التــي يفرضهــا تحقيــق النّصُوص كالنســخ، والمقابلة، ووصف النّســخ، وإثبات الفروق بينها، والتّرجمة للمؤلف، وإلحاق نماذج من النّسخ الخطية.

وإذا كان قد سار على قاعدة عَامَّة في تحقيقاته كلهــا، مؤدَّاها عــدم إرهاق الحــواشي بتعليقات لا فائدة منها، فإنه يتنكّب هذه القاعدة بنقل مسائلَ بكاملِهــا، مــا دامَ في الأمر خدمةُ الكتــاب المحقَّق، ففــي ســياق مجــيء (إنَّ) بمنزلة (نعــم) حرفَ جــوابٍ، وفي ســياق تعليقِه على قــول العُكبريّ في كتابه (إعراب الحديث النّبويّ): «وقد أفردت هذه المَسْأَلَة بالكلام» [٧٣].

ذكر الدّكتور النّبهَان أن الأستاذ ياسين السّوَّاس عَثَــرَ عــلى كُــرَّاسٍ فيه مســائل للعكــبري، وهذه المَسْــأَلَة هي المَسْأَلَة الثّانية فيه، وقد نشر السّواس هذه المســائل في المجلد ٢٦ ج ٢ لســنة ١٩٨٢ من (مَجَلَّة معهد المَخْطُوطات العَرَبِيّة) التي تصدر في القاهرة، فنقل النّبهَان المَسْــأَلَة بكاملها، فكانت في الحاشــية (٢) من الصّفحــة (٧٥)، وامتدت حتى الصّفحة (٨١)، أي شغلت ست صفحات.

(٧٣) إعراب الحديث، ص: ٢٦٩.

ومما هو بسبيل الاستقصاء في أوجه المَسْأَلَة، ومن الأمثلة على ذلك أن الحديث (١٨) جاء فيه: «لم يأتني منذ ثلاثُ...» بالضّم في (ثلاث)، فقال الشّيخُ -يعني العُكبريّ-: «... وأما (ثلاثُ) فبالرفع لا غيرُ؛ لأنَّهُ ذكر ذلك لقدر مدّة الانقطاع؛ أي أن ذلك ثلاث الأول ».

وجاء النّبهَان ليعلِّق على هذا الموضع[٧٤] : قال ابن هشام: (منذُ) و(مُذْ) لهما ثلاث حالات. وقد ذكر أبو البقاء هنا حالتين، والحال الثّالثة التي ذكرها ابن هشام أن يليهما الجملة الفعلية أو الاسمية... وقد ذكر أبو البقاء الحالات الثّلاث في كتابه (التبيين) ونقلهما عنه الجلال السّيوطي (ت ٩١١هـ) في كتابه (الأشباه والنّظائر) ٢: ١٦٠.

ومن ذلك أيضًا ولعه بالتَّوثيق، وهو ملمحٌ من ملامحِ اهتمامه بما ينشر من التّرَاث؛ فحين عرض لذكر آثار العُكبريّ ذكر (شرحَ شعرِ المُتنبّي)، وساقه ذلك إلى حاشية من خمسةِ أسطر، تضمّنتْ ذكرهُ أقدمَ طبعاتِه في كلكتّا سنة (١٢٦٢هـ)، وبولاق (١٢٦١ – ١٢٨٧هـ)، ومصر سنة (١٣٠٨هـ) من غير تحقيق، وبمصر تحقيقًا سنة (١٩٣٨ م). ثم أضاف إلى ذلك مواقف الباحثين من توثيق الشّرح والكلام في نسبته إلى العُكبريّ، وأشار إلى ما جاد به قلم المرحوم الدّكتور مصطفى جواد في ذلك ونشره في مَجَلَّة مَجمَع اللُّغَة العَرَبِيّة بدِمَشْق، مج ١٢، سنة ١٩٤٧م[٧٥].

ومما هو بسبيلٍ من ذلك أنَّه ارتأى – ونزولًا عند رغبة د. شاكر الفحَّام- أن يذكر الحديثَ بتمامه في الحاشية في الطّبعة الثّانية من كتاب (إعرابِ الحديثِ النّبويّ) التي أصدرَها مَجمَعُ اللُّغَة العَرَبِيّة بدِمَشْق، وفي ذلك إسداءُ خدمةٍ جليلة للحديثِ المُشكل وبيان سياق الإشكال فيه، حتى لا يبدو الحديث أبترَ.

والحاشية ميدان المحقق في توضيح العبارة الغامضة[٧٦]، وتصحيح نسبة الشّاهد[٧٧]، وإتمامه[٧٨]، وإثبات الفروق في الرّواية، والتّفصيل في النّقل عن الأئمة والرّواة في الجرح والتّعديل، واختلاف رواية ألفاظ الحديث، فبعد أن نصَّ على أوجه القراءات[٧٩] -موطن الشّاهد- من سنن التّرمذي ٩: ١٨٣. وذكر اختلاف ألفاظه قال: «وفي إسناده يعني الحديث الشّاهد – الحكَمُ بن ظهير. قال أبو عيسى: هذا حديث ليس إسناده بالقوي، والحكم بن ظهير قد ترك حديثَه بعض أهل الحديث، ويروى هذا الحديث عن النّبي صلى الله عليه وسلم مُرْسَلًا من غير هذا الوجه. قال محقق السّنن: تفرد به التّرمذي.

ونقل عن محقق (زاد المسير) أن هذا الحديث موجود في تعليقاتهم في ج ٨ ص ٢٩٩، وقالوا: «وقد صحَّ من رواية البخاري وغيره: اللهم ربَّ السّماوات السّبع وما أظللن... قلت: ولم أعثر في البخاري على الحديث المذكور »[٨٠].

وربما يذهب إلى الاعتقاد أن التّعرُّض في الجرح

(٧٤) المصدر نفسهُ ، ح ١، ص: ٧٢. وانظر ص: ٢٥٩، و٢٦٠، الحديث (١٩٤). وانظر في ذلك أيضًا: كشف النقاب المجازي، ص: ٤٦ – ٤٨.

(٧٥) المصدر نفسهُ ، ص: ١٥. وانظر ح ٣ و٤.

(٧٦) المصدر نفسهُ، ص: ٥٤.

(٧٧) المصدر نفسهُ، ص: ٩٦.

(٧٨) المصدر نفسهُ، ص: ٢٢.

(٧٩) الأشباه والنظائر ١: ٢١.

(٨٠) المصدر نفسهُ ١: ٢١.

والتّعديل والحكم على الرّجال الرّواة ليس من شأن المحقّق، لا سيما في تحقيق كتاب نحوي لا حديثيٍّ، إذ الواجب الاقتصار على تخريج الشّاهد من كتب اللُّغَة فحسب. أقول: لم يكن فعل النّبهَان -على ما أرى- من قبيل التّزيد، ولكن ما تغيَّاه الإشارة إلى بعض التّحوُّلات الطّارئة على رواية الحديث.

وإذا كان في معرض التّعريف بصاحب النّصّ المحقق فإنَّ التّرجمة له ترتكز إلى جملة من الأمور:

• الابتعاد عن التّعابير الإنشائية والتّراكيب الطّنانة. فلا يجعل من صاحب النّصّ آية من آيات الإبداع، ولا من كتابه كتابًا لا يأتيه الباطل، على عادة كثير من المُحَقِّقِينَ الذين ينفخونَ في صاحبِ النّصّ مهما كانتْ منزلته متواضعة.

• المَوضُوعِيّة في الأحكام، فلا يتورَّع عن ذكر السّمات السّلبية التي يتصف بها صاحب النّص، ففي تحقيقه قصيدة ابن قضيب البان ذكر أهم السّمات النّفسية للشاعر المترجم، ومرَّ على بعض الصّفات التي قد تَقدَحُ في سيرته وشخصيته. قال: «ويبدو من مطالعة حياته كما دوَّنها المحبّي (ت ١١١١هـ) في كتابيه أَنَّ الرّجُلَ كانَ طموحًا إلى المناصب، ذا علاقات مع كبار رجال عصره، ويبدو أنه كان محبًّا للمال يجمعهُ من أي سبيل، حتى لقد كثرَ أذاه للناس، وأقحم نفسه في أمر تسعيرة القمح، والنّاس في ضائقة شديدة، لذلك كانت نهايته مأساوية، إذ تجمع النّاس وقتلوه عند مغادرته المقبرة التي كان دُفِن فيها متسلِّم حلب الذي اتهم ابن قضيب البان بدس السّم له، ثم الخروج في جنازته »[٨١].

أما المتن فهو الحمى المصون الذي يجب الحفاظ عليه مع توخي الحرص على ذكر الصّواب فيه، فلا يَتدخَّل فيه إلّا في حدود ما يفرضه السّياق، حتى لو خالف صاحب النّصّ المحقّق المصدر الذي نقل عنه. ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في الحاشيتين ٤ و٥، من ص: ٥٩ في تعليقه على نص اقتبسه السّيوطي من ابن جني في الخصائص، قال: «... وبابه... وكذلك قوله:... ». قال المحقق في (ح٤): «في الخصائص: (وهذا...) »، وفي الحاشية (٥): «جاء في (الخصائص): قولهم... »، فأبقى اللَّفْظِيّن على ما أثبتهما السّيوطي في نسخته لعدم تأثر السّياق بهذا التّغيُّر. أما إذا أحوجه السّياق إلى التّصحيح فلا ضيرَ في ذلك. ومن ذلك ما جاء في (ص ٤٨) من كشف النّقاب، وهو قول الشّارح: «ثم دعا لتلك المعاهد بالسقاية وسريان النّسيم كما هي سنتهم ». والضمير في الأصل المَخْطُوط « هو » لا « هي »، لكن المحقق تدخل بالتغيير لضرورة السّياق.

وقد يزيد في المتن إذا اقتضى السّياق ذلك. جاء في (الأشباه): «فإنْ خففتَ حركة العين فأسكنتها قلتَ: (طَوْية)، و(جَوْية)، و(لَوْيةِ)، فصححتَ العين، ولم تعلّها بالقلب والإدغام، لأنَّ الحركة مَنْوية، وعلى ذلك قالوا في (فَعَلان) من (قويتُ): (قوَيان)، فإنَّ أسكنوا العين أيضًا فقالوا: (قَوْيان)، ولم يردّوا اللام »[٨٢]. فذكر في الحاشية:[٨٣] «زيادة من (الخصائص) يقتضيها

(٨١) كشف النقاب المجازي، مقدمة المحقق، ص: ١١.

(٨٢) ويُنظر ١: ٦٠، ح ٧ في قوله: (ها الله)، ففي الخصائص: (ها الله ذا).

(٨٣) الأشباه والنظائر ١: ٤٩-٥٠.

السّــياق »[٨٤] ، فعلى السّياق المعوَّل في دقة اختيار اللَّفْظ البديل[٨٥].

• الذائقة النّقديّة: فمع تعمُّده الابتعاد عن المبالغات لكن ذلك لا يعني لديه التّسليم بالآراء تسليمًا آليًا، فلا بد من تصحيح الرّأي أو ردّه، أو إعلانه ابتداء.

ففي مســألة (الإتباع)، واختــلاف اللُّغَوِيّين فيه حالــة الإفراد نقل السّــيوطيّ في الأشــباه عن أبي الطّيب اللُّغَوِيّ قوله: «لا يكاد يسْــتعمل (نِجْسٌ) -بكــسر النّــون- إلّا مع (رِجْــس) ». فعلق محقق الكتاب المرحوم عزّ الدّيــن التّنوخي قائلًا: «وهذا القيد لا يوجد في المعاجم ». فردَّ النّبهَان هذا الرّأي فقال: «قلــت: تقدّم ذكر هذا القيد في ديوان الأدب ١: ١٨٦ »[٨٦].

وأنكــر في مقدمة تحقيق كتاب (إعراب الحديث النّبــوي) إقحــام د. شــوقي ضيــف العكــبريّ في المذهــب البغداديّ، فقــال: «كما أنّني لا أرى لهذه (البغداديــة) التــي نســبه إليها الدّكتور شــوقي ضيــف وجهًا ولا حجَّة، فــإذا كان أبو البقاء -كما يقــول الدّكتور شــوقي ضيف- يجــري في إعراب الألفاظ -يريد ألفاظ القُرآن- على المذهب البصري، ويتوقف مرارًا ليردّ على الكوفيين، وإذا كان يتتبع الفــارسيّ في آرائــه النّحوية، فلا وجه لنســبته إلى من يســمّونه بالمذهب البغدادي »[٨٧]. فواضح من قوله: (ما يســمّونه) عدم اعتــداده بوجود مذهب بغــدادي أصلًا، فالبغداديّون هم البصريون الذين سكنوا بغداد.

وإذا كان بعــض النّقــاد والمفكرين يذهبون إلى أن ظاهرة الشّروح بالحــواشي مظهر من مظاهر توقف الإبــداع وجمود الفكر العَرَبِــيّ عن العطاء والابتــكار، وتقوقعه في شرنقــة النّصُوص = فإنَّ للدكتــور النّبهَان رأيًــا يناقض ذلــك، فهي عنده منجز من أهــم منجزات عصرَيْ الــدّول المتتابعة والعثمانــي، لأنهــا تتســم بالتنظيــم والتّرتيــب وتوفر الفوائد المتكــررة المتفرقة فيها، والاحتفاظ باستمرار العلم والأدب، وجعلها نصوصًا ضاعت أصولهــا، وباعتنائهــا بالمباحث الدّقيقــة، فكانت وجهًا من أوجه النّشاط الذي حافظ على الفصحى وعلومهــا في أزمنة حالكــة[٨٨].وإذا كان فن المديح النّبــوي قــد عــرف أعلامًــا متقدمين فــإنَّ «أمير الشّعراء أحمَد شــوقي تبوّأ قمة فن المديح النّبوي في عصرنا، إنه سبق من تقدَّمه، ولم يلحق به حتى الآن مَــنْ تأخَّر عنــه »[٨٩]. وهــذه آراء لا يمكن أن تُطلَق جُزافًا، أو بســبق إعلامــي، أو غير ذلك، ولا يمكن أن يطلقها إلا عالم راسخ الأقدام في ساحات البَحث العِلمِيّ، يمتلــك الأدوات كلها؟ التي تخوِّله إصدار مثل هذه الأحكام النّقدية.

نقد التّحقِيق:

وهــو مجلى مــن مجالي تراثيتــه، ونمثل لذلك بمقالته المعنونة بـ (نظرات في كتاب تفسير أبيات المعاني من شــعر أبــي الطّيب)[٩٠]، لأبي المرشــد سليمان بن عليّ المعريّ المُتَوَفَّ بعد سنة ٤٩٢ هـ. بلغ عدد صفحات كتاب (تفسير أبيات المعاني)

(٨٤) المصدر نفسهُ، ١: ٤٩-٥٠، ح١.

(٨٥) المصدر نفسهُ، ١: ٥٦، ح ٨.

(٨٦) الأشباه والنظائر ١: ١٨، ح ٧.

(٨٧) إعــراب الحديث النبوي، ط ٢، مَجمَع اللُّغَة العَرَبِيّة بدِمَشْق، ١٩٨٦، ص: ١٧.

(٨٨) كشف النقاب المجازي، ص:٩.

(٨٩) المصدر نفسهُ، ص: ٦، مقدمة التحقيق.

٣٠٩ صفحات من القطع الكبير، وجاءت مقالة [٩١] نقد الدّكتور نبهان له في خمسين صفحة؛ أي بنسبة ٦/١ مـن حجم الكتاب المنقود. بدأها بمقدمة عن اهتمـام علماء العَرَبِيّة بالتأليـف في أبيات المعاني عَامَّـة وشرحها، ومنهم ابن قتيبة، والأُشْـناندانـي، وابن السّـيْد البطليوسي، واهتمـام بعضهم كأبي عبد الله النّمريّ بأبيات الحماسـة، أو شعر شاعر معين كالمتنبي، ومن هؤلاء ابن سيده، وأبو المرشد سـليمان بن علي المعريّ في الكتاب موضوع النّقد، وهو مسـتخرج من كتاب (اللامع العزيزي) لأبي العلاء المعري، وكتاب (الفسر) لابن جنيّ.

والمـراد بأبيـات المعاني «تلـك الأبيات التي لا تُفهم بِيُسْرٍ وسُـهولة، ولا يَتَبَيَّنُ القـارئُ معانيها للوهلـة الأولى، بسـبب مـا يعتورها مـن غموض وإبهام قـد يكون مرده غرابة المعنـى المعبَّر عنه، أو تراكب صوره وتداخلها في البيت، أو لما فيه من إشارات لأحداث بعيدة غير معروفة لعَامَّة النّاس، أو لتعقيد لفظيّ سـببه تقدم الضمائر أو تأخرها عن أماكنها... »[٩٢] .

وأبت أخلاق د. النّبهَان العِلمِيّة وتواضعه ونبل مقصده - على الرّغـم من المآخذ التي دبجها قلمُهُ - إلَّا الاعتراف بفضـل محققَي الكتاب، وجهدهما المبذول في إِخرَاجِ الكتاب وتحرير نصه وفق الطّاقة والجهـد البشريـين، فقـال: «وقد بـذل المحققان الفاضلان جهدهما في تحقيق هذا الكتاب وتحرير نصـه، ووضعـا - فيما يبدو - خطـة محكمة من حيـث الاقتصـاد في التّعليقات والإحـالات لإخراج الكتاب في مدة محدودة، ومعهما الحقّ كلّ الحقّ في ذلك؛ لأنَّهُ لا معنى لحجز الكتاب وتأخير نشره من أجل تقويم موضع غامض، أو من أجل العثور على قائل بيت من أبيات الشّواهد قد يحتاج البَحث عنه أسابيع وأحيانًا شهورًا. فليُنجز الكتاب وليُنشر ثم يتابع القراء قضاياه، وكل يتمم نقصًا ويسـتدرك استدراكًا، ثم تجمع هذه الاستدراكات ويُنتفع بها في الطّبعات التّالية للكتاب»[٩٣] .

إن مـا قالـه أسـتاذنا –رحمـه اللـه في الفقرة السّـابقة- لَيفصـح عـن سـمْت عِلمِـيّ بعيد عن التّشـدد الـذي لا يقرُّ لأحـد بالفضل فيمـا أنجز، ولا يعـرف صاحبـه إلا إعـلان النّكير والتّشـهير والتّقزيـم، ويفصـح كذلك بإقـرار المرحوم ببعد الجهد البـشري عن الكمال مهما حـاول صاحبه ذلـك، ولا يقصد من ذلك التّهافت في المسـتوى أو الاقتصار على الوراقة وادعاء التّحقِيق، وهو كذلك يكشـف عـن نظـرة مَوضُوعِيّـة إلى تكامل جهود الباحثين والعلماء.

وبعـد تلبـث عند ما تجمـع لديه في أثنـاء القراءة والتّتبع من ملاحظ واسـتدراكات تحتجنها ثلاثة مضايق؛ فمنها ما يتعلـق بالنّصّ، ومعظمها مما له علاقـة بتخريج الشّـواهد وتصحيـح بعضها، ومنها ما هو عامّ.

جاءت الملحوظات العَامَّة في تسع ملحوظات، منها:

(٩٠) صـدر الكتـاب بتحقيـق الدكتـور مجاهـد محمد محمود الصواف، والدكتور محسـن غياض عجيل، مركز البحث العِلمِـيّ وإحياء التراث في جامعة الملك عبد العزيز، طبع في دار المأمون للتراث بِدِمَشْق، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

(٩١) نـشرت المقالة النقديـة في (مجلة معهد المخطوطات العَرَبِيّة)، مج٣٩، ج٢، شوال ١٤٠٢/ديسمبر١٩٨٥، ولم يكن د. نبهان قد حصل على الدكتوراه.

(٩٢) تفسير أبيات المعاني، ص:٩.

(٩٣) مجلة معهد المخطوطات، مج٣٩، ج٢، ص:٧٥١.

١- خلو الكتاب من الفهارس مع الحاجة إليها.
٢- الإحالة في استخدام المُعجَم إلى أرقام الصّفحات، والأصل الإحالة إلى المادة.
٣- إحالة المحقِّقَين الفاضلين إلى ديوان المتنبي بشرح العكبري، وهو شرح مشكوك في نسبتِهِ إليهِ.
٤- إهمال تخريج القراءات.
٥- الإيجاز في تراجم الأعلام مع التّرجمة للمشاهير وإهمال من هو أقل شهرة.
٦- عدم ترقيم أبيات المعاني، وعددها (٥٨٩) بيتًا.
٧- عدم الإحالة إلى كتاب (شرح مشكل شعر المتنبي) لابن سيده، وهو سابق في الإخراج لكتابهما، وفي الإحالة إليه كمال الفائدة؛ فالموضوعان متشابهان، ويمكن عقد مقارنة بين العملين لاختلاف منهجيهما.
٨- إخراج الكتاب؛ إذ لم يفصل المحققان عن طريق قياس الخط بين أبيات المعاني وبين أبيات الاستشهاد.
٩- عدم إلحاق جدول بالخطأ والصّواب.

أما الملحوظات الجوهرية التي تمس متن الكتاب، ويتبدى فيها منهج أستاذنا المرحوم فيمكن تقريبها في عدد من الملاحظ، منها:

١- استيفاء التّخريج والزيادة عليه، من ذلك قول الشّاعر:

درّة كيفما أُديرت أضاءت
ومَشمّ من حيث شُمَّ فاحا

فقد اقتصر المحقّقان في تخريجه على مصدرين هما: شرح العكبريّ ١: ١٣، وشرح الواحديّ، ص: ١٩٢.

وقد زاد د. نبهان مَصَادِر كثيرة في تخريج هذا البيت، وهي زيادة تكشف عن دقة في التّتبع، فقال: «قلت: ورد البيت في مقطوعة في ديوان إبراهيم بن العباس الصّولي الذي نشره العلامة المرحوم عبد العزيز الميمني ضمن (الطرائف الأدَبِيّة)، والمقطوعة في الصّفحة: ١٤٢، وهي... والبيت في كتاب التّشبيهات لابن أبي عون: ١٤٢، ونسبه لإبراهيم بن العباس.

وورد البيت في تكملة ديوان الصّنوبري ق٥٧، ص٤٧٠ نقلا عن تزيين الأسواق ٢: ٨١، والرّواية فيه... ».

١- تصحيح الرّواية وتوثيقها؛ فقد ورد في الصّفحة ٢٦ من الكتاب قول المؤلف »... ونظير هذا بيت هند:

تصلي مصليًا عمرو في
دارها صلاتَها في المسجد »

وقال المحققان: «هكذا ورد البيت في الفَسر أيضًا ١: ٨٠، وقال محقّقه الدّكتور صفاء خلوصي في الحاشية: كذا ورد في الأصل ولم نعثر عليه في المظان والمراجع، ونحن نقول بمثل قوله ».

ولكن أستاذنا بما كان يتمتع به من ذاكرة مدهشة عاد بهذه الذاكرة إلى مجلس له مع شيخ العَرَبِيّة أحمَد راتب النّفاخ فصحح الرّواية، وقطع قول كل خطيب، معيدًا الفضل إلى أهله فقال: «قلت: كان مما علق بذهني من الفوائد الجمة التي ينثرها أستاذي العلامة أحمَد راتب النّفاخ في مجالسه تصحيح هذا الموضع من (الفسر)، فليس هناك بيت لهند، وليس هناك شعر، وإنما هي عبارة نثرية تصحفت كلمتها الأولى بسبب سوء الإعجام فتحولت (تبيت) إلى بيت، وصواب العبارة (تبيت هند تصلي مصليًا عمرو في دارها صلاتها في المسجد) »[٩٤].

(٩٤) مجلة المعهد، ص: ٧٥٤.

٢-تصحيح الخطأ المبنوي، فقد ورد في الكتاب، ص: ٣ عبارة: «والخنوف التي نقلت خُفها الوحشي »، فعلق على ذلك بقوله غير متصلب: «أظن الصّواب: (قلبت)، قال في اللسان (خنف): خنف البعير يخنِف خِنافًا إذا سار فقلب (خنف) يده إلى وحشيه... » [٩٥].

٣- النقد العروضي: كان أستاذنا -رحمه الله- شديد الاعتناء بمسائل العروض في نقداته ومناقشاته رسائل الماجستير والدّكتوراه، فقلّما تسلم رسالة أو كتاب يقف عليه من مثالب عروضية يكتشفها، وهو الذي أتقن هذا الفن نظرًا وتطبيقًا؛ فقد دَرَّسَهُ زمنًا في الجامعة، فكنَّا نعجبُ من تمثله هذا العلم ومُصْطَلَحاته الدّقيقة، وهي شاهد آخر دقيق على الذاكرة التي لا تتفلت منها قَضِيَّة من قضايا العروض[٩٦] .

٤- المَوضُوعِيّة والاعتدال؛ إذ لم أقف في نقداته على تضخيم الأمر وتهويل القَضِيَّة كما يفعل كثير ممن يتتبعون بعض الإصدارات، فما كان يميل به ظنّه إلى أنّه من أخطاء الطّباعة أشار إليه على أنه كذلك غير مزرٍ بصاحب ولا معلن عليه النّكير، راميًا إياه بأوصاف الجهل وغيره، وما كان من غير هذه البابة دقَّق فيه وصَحَّحَهُ.

٥- ضرورة التّخريج من دواوين الشّعراء: فقد يقتصر كثير من المحققين على معاجم تخريج الشّعر فينقلون ما فيها من غير عودة إلى ديوان صاحب الشّاهد، أو يعولون على مراجعة المَصَادِر الكبرى فحسب، وهذه مثلبة في رأيه، فقد يكون المصدر مُختَلَف الرّواية عن أصل الدّيوان، وقد تختلف روايات العلماء لديوان شاعر من الشّعراء. من ذلك ما جاء في الصّفحة ٥٠ من الكتاب المنقود، وتخريج المحققين بيت أبي دواد الإيادي من شرح الواحدي لديوان المتنبي، ص: ٦٦٢، فقال: »قلت: البيت في شعره المجموع، ق٦١، ب١٥، ص: ٣٤٣، وتخريجه هناك، والرّواية فيه: ولها قرحة-بالقاف المشددة »[٩٧].

موقفه من الاستشراق:

كان من جملة هذه ما كتَبَه ونَشَرهُ الدّكتور النّبهَان دراسة عنوانها[٩٨]: (غوستاف غرونباوم وآراؤه الأدَبِيّة) المنشورة في مَجَلَّة (عالم الكتب) السّعودية، مج ١٥، الجزء ٦، لسنة ١٩٩٤ م، وهو بحث -كما يتراءى لي- يقدّم صورة عمّا يجبُ أنَ يَكونَ عليه الأكاديميُّ من مشاركةٍ في ميادينِ المَعرِفَة الكثيرة، غير قانع بما يمليه عليه اختصاصه الدّقيق، ويفصح من جهة أخرى عن موقفه في الاستشراق والمُسْتَشْرِقين عَامَّة. فمن غرونباوم؟

غوستاف فون غرونباوم (Gustav Edmund von Grunebaum)مُسْتَشْرِق من أصلٍ نمساويٍّ، وُلِدَ في فيينَّا سنة ١٩٠٩ م، وهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٣٨ بعد أن ضمَّت ألمانيا النّمسا إليها، وحصل على الجنسيّة الأمريكية، وغدا أستاذًا في جامعة نيويورك وشيكاغو، ثم صار أستاذًا ورَأَسَ قِسمَ الدّرَاسَاتِ الشّرقية في جامعة كاليفورنيا، وبقي في منزلته تلك إلى أنْ

(٩٥) المصدر نفسهُ، ص: ٧٥٥. وانظر:٧٥٧.

(٩٦) المصدر نفسهُ، ص: ٧٦٢.

(٩٧) المصدر نفسهُ، ص:٧٥٧، وانظر: ٧٥٨.

(٩٨) شارك الدكتور عبد الإله نبهان بهذا البحث في المؤتمر النقدي الرابع الذي أقيم سنة ١٩٩٢ في رحاب جامعة جرش، الأردن.

تُوُفِّيَ سنة ١٩٧٢م.

عُـرف (غوسـتاف فـون غرونبـاوم)، بغزارة الإنتـاج وتنوّعه، فخلَّف عددًا مـن المؤلفات، منها: الإسلامُ في العَصرِ الوَسيط، وقد صدر سنة ١٩٤٩، والأدبُ العَرَبِيّ في القرنِ العاشرِ الميلادي، والإسهامُ العَرَبِـيّ في شـعر التّروبادور، والأسـاسُ الجَماليُّ للأدب العَرَبِيّ، وشعراءُ عَبَّاسِيّون، وغيرها[٩٩].

ومـن كتبه المهمَّة (دراسـات في الأدب العَرَبِيّ) الذي ترجمه كل من إحسان عباس، وأنيس فريحة، وكمال اليازجـي، وأشرفَ على التّرجمـة الدّكتور مُحَمَّـد يوسـف نجم، وصدرت هـذه التّرجمة عن دار مكتبة الحياة بالاشـتراك مع مُؤَسّسة فرنكلين المسـاهمة للطباعـة والنّشر، بـيروت – نيويورك سـنة ١٩٥٩ م [١٠٠] . وفي السّـنةِ نفسِـها، وعـن الـدّار عينها صـدرتْ ترجمة كتابِه الآخر: (شـعراء عَبَّاسِـيّون) [١٠١]، وجـاء في ١٩٢ صفحـة، وضـمَّ دراسـاتٍ عن الشّـعراء الثّلاثة: مُطيـع بن إياس، وسَلْم الخاسر، وأبي الشّمَقمَق.

جـاء كتـاب غروبنـاوم (دراسـاتٌ في الأدبِ العَرَبِـيّ) في ٣٨٧ صفحـة من القطع المتوسِّـط، واحتجن الأقسام الآتية:

القسـم الأول – دراسـات عَامَّـة، وضـم الأبحاث الآتية:

• الأسـس الجماليـة في الأدب العَرَبِيّ (ص ص ٩ – ٣٨).

• روح الإسلام كما تبدو في الأدب العَرَبِيّ (ص ص ٣٩ – ٥٨).

• الدراسـات الإسـلامِيّة والبَحـث في الحَضَـارَة والثَّقَافة (ص ص ٥٩ – ٨٣).

• رسالة ابن سينا في العشق (ص ٨٣ – ٩٩).

وهي من ترجمة د. إحسان عباس، رحمه الله.

القسم الثّاني – في النّقد العَرَبِيّ، وفيه:

• النقـد العَرَبِيّ في القـرن الرّابع (ص ص ٩٩ – ١٢١).

• آراء ابـن أبـي عـون الأَدَبِيّـة (ص ص ١٢١ – ١٣٣).

واضطلـع بترجمـة هـذا القسـم الدّكتـور مُحَمَّد يوسف نجم.

القسم الثّالث – في الشّعر والنّثر، وفيه:

• نشـأة الشّعر العَرَبِيّ وتطوّره (ص ص ١٣٣ – ١٥٩).

• الاسـتجابة للطبيعة في الشّعر العَرَبِيّ (ص ص ١٥٩ – ٢٠١).

وترجمهما الأستاذ كمال يازجي.

• أثر العَرَب في شعر التّروبادور (ص ص ٢٠١ – ٢٢٥)، وهو من ترجمة د. إحسـان عباس، رحمه الله.

• مـدح المدن في النّثـر العَرَبِـيّ (ص ص ٢٢٥ – ٢٤٣)، وهو من ترجمة د. أنيس فريحة.

القسم الرّابع – دراسات ونصوص شعرية، وفيه:

• أبو دؤاد الإيادي وما تبقَّى من شـعره (ص ص ٢٤٣ – ٢٨١).

• شعر أبي دؤاد (ص ص ٢٨١ – ٣٥٥).

وهذا القسـم بِرُمَّتِه من ترجمة د. إحسان عباس، رحمه الله.

وأُلحـقَ بهذهِ الأقسـامِ فِهـرَسُ الأعـلام، وجدولٌ للخطأ والصّواب، وفِهرَسٌ للموضوعاتِ، وشَـغَلَتْ

(٩٩)كان التعويـل في ترجمـة المسـتشرق غرونباوم على: موسوعة المستشرقين، د. عبد الرحمن بدوي، طبعة وزارة الثقافة، عمَّان، الأردن، ٢٠١١، ص: ١٨٢-١٨٣.

هذه الفهارسُ كلها الصّفحات (٣٥٥ – ٣٨٦).

وعلى هـذا الكتاب عوَّل الدّكتـور عبد الإله نبهان، رحمـه اللـه تعويـلًا كليًّـا في اسـتخلاص آراء (غرونباوم)، والقوس التي يرمي عنها، والأهداف التي يتغيَّاها.

تقع الدّراسـة في سبع صفحاتٍ من الحجم الكبير، وفي كُلِّ صفحـةٍ منهـا عمـودان، وفيهـا تظهـرُ شـخصية النّبهَان المحايـدة التي لا تنكـرُ جهودَ الآخريـن ولا تلغيهم، ولذلك نجده بعـد أَنْ عَرَّفَ تعريفًـا بالمُسْـتَشْرِق المـدروس – وهـو نمـوذج لمُسْـتَشْرِقين آخرين كُثر يـدورون في فلكِ المركزية الأوربيـة – يُقَـدِّمُ بإعـلاءِ عَدَدٍ من السّـمَاتِ التي وَجَدَهَا النّبهَان في هذا المُسْتَشْرِق، وهي:

١- صراحة آرائهِ، والبعد عن التّلميح.

٢- إخلاصـه المطلـق لدراسـة الأدب العَرَبِـيّ من منظور غربي.

٣- إخلاصـه لمبدئـه السّـابق في تدريسـه الأدب العَرَبِيّ للأوربيين.

٤- انسجامه مع نفسه.

٥- تقديمه مقالاته بالطريقة نفسـها التي درس بها[١٠٢].

ثـمّ شرع بتفصيـل آرائـه وتفنيدهـا. فموقف (غرونبـاوم) لا يختلـف عـن موقـف غـيره مـن الأوربيـين الذيـن يعلـون مـن شـأن الحَضَـارَة اليُونَانِيّـة، ويتعبـدون بمنتجاتهـا، فالحَضَـارَة اليُونَانِيّـة لـدى غرونبـاوم هي البدايـة والنّهاية، وهـذا لديه مـن البديهيـات التي لا خـلاف فيها، فهي » المتن والحاشـية والتّقرير في الأدب والفكر والفـن والنّقد ومظاهر الحَضَـارَة كلها «، أما علَّة هذا الموقف فـلا يمرّ بها؛ لأنها أمر بديهي لا يقبل جدالًا، ولا يتطرق إليه ظن أو شك[١٠٣].

وبنـاءً عـلى هـذه البديهية يقـرِّر غرونباوم في دراسـته (الأسـس الجمالية في الأدب العَرَبِيّ) أنَّ الفكر الإسـلامِيّ عَامَّة مُؤَسّـس على سيكولوجية أرسطوطاليس، وهذه السّيكولوجية تحط من قدر الخيـال وتضعه مع القوى الحيوانية في مسـتوى واحد، و «أنَّ المُسلِمين اعتنقوا بعد شيء من التّردد رأي أرسـطو في العقـل، ممـا أدى إلى اسـتهجان خيـال الشّـعراء، ومـا كانـت عصور العقـل أبدًا صالحة للفن الملهم »[١٠٤].

لقـد كانـت توطئـة غرونباوم، السّـابقة مطية يصـل على صهواتها إلى التّفصيل في موقف العَرَب ونظرتهـم إلى الشّـعر، وهـي تتلخـص في الأمور الآتية:

١- إن نظـرة العَـرَب إلى الشّـعر لا تتجاوز جعله ديوان الجماعة.

٢- ليس للخلق والإلهام دور فيه.

٣- الوحي خاصٌّ بالأنبياء فحسب.

٤- لا دور للشـاعر إلا في اسـتظهار مـا نظمـه السّابقون عليه وتقليدهم.

٥- التفـوّق الشّـعريّ في نظرهـم أساسـه معيار واحد هو الإغراب.

٦- نظرتهم إلى جماليّة الشّعور محكومةٌ بنظرتهم

(١٠٠) كان للصديـق الدكتور عباس هاني الجراخ فضل تزويدي بنسخةٍ منه، فله الشكر الجزيل.

(١٠١) مجلـة عالم الكتب، مـج ١٥، ع ١، ١٩٩٤ م، ص: ٦٣٧.

(١٠٢) المصدر نفسهُ، مج ١٥، ع ١، ١٩٩٤ م، ص: ٦٣٧.

(١٠٣) المصدر نفسهُ، ص: ٦٣٧.

(١٠٤) المصدر نفسهُ، ص: ٦٣٧-٦٣٨.

إلى الشّكل والمضمون.

٧- إنَّ المُتعة التي قد تتوفرُ في قطعةٍ شعريّة ما هي إلا شيءٌ زائد يوشّى به الكلام العاديّ ويحسَّن.

٨- نظرتهم إلى جمال الشّعر مرهونة بأمرين هما: الشّكل والمحتوى وهي -لدى غرونباوم- مقولة أرسطية لا شك في ذلك، فللشكل «كيان مستقل في ذاته مقدور له بنوع من التّعسّف أن يرتبط بالمحتوى» [١٠٥]؛ فالنَظَرِيّة الأدَبِيّة عند العَرَب مُؤَسّسة على أن المعاني لها استقلالها، ويمكن عرضها بأساليب متعددة[١٠٦].

٩- لا يفرِّق العَرَب بين الشّعر والنّثر إلا في الطّابع العروضي الذي يقوم عليه الشّعر.

١٠- النقد العَرَبِيّ مستلهَمٌ من آراء النّحاة، فقد كان النّقد -في رأي غرونباوم- في أيدي النّحاة.

١١- للدين الإسلامِيّ -في رأي غرونباوم- أثر في انحطاط الخيال، إذ لم يُعلِ الشّعر إلى مستوى الإلهام الصّادر عن قوة لا إنسَانِيّة، وعلة ذلك لديه اعتماد الدّين الإسلامِيّ على الوحي. ولهذا يؤمن - غرونباوم – أن الإسلام وقف حائلًا دون الإيمان بقدرة الإنسان على الإبداع، ولذا يجد النّاس عاجزين عن التّمييز بين الخلق الفني والخلق من العدم[١٠٧].

بعد أن فرش النّبهَان ما تمخض عنه فكر (غرونباوم) الاستشراقي، واستخلص أهم القضايا التي كان يبثها تنظيرًا وتدريسًا، انبرى للرد عليه وتفنيد آرائه، «فحدَّد القَضِيَّة الأساسية التي يتفق (غرونباوم) وزملاءه المُسْتَشْرِقين فيها، وكشف الدّاء الذي سرى في أفهامهم، وهو أن مُشْكِلَة المُسْتَشْرِقين ومنهم غرونباوم يرمون عن قوس الحَضَارَة اليُونَانِيّة، فحَضَارَة اليونان القديمة هي المرجع والمآل»[١٠٨]، وهي فكرة صدرت عنها المركزية الأوربية في علاقتها بالأمم الأخرى.

وهذا أوان سرد الرّدّ التّفصيلي على ما أثاره (غرونباوم). وفي استطاعتنا أن نحدِّد القضايا التي ناقشها ورد عليه فيها على النّحْو الآتي:

أ- الأسس الجمالية للأدب العَرَبِيّ:

إن بحث (غرونباوم) المعنون (الأسس الجمالية للأدب العَرَبِيّ) هو بحث قائم في جوهره على افتراض فحسب، لا دليل له عليه، وهو أن الفكر الإسلامِيّ متكئ اتكاء كليًّا وحرفيًّا على الفكر الأرسطي. وهذا يجعل الحضارات بعضها أفضل من بعض، وبعضها أعلى من بعض، ويجعل يدًا عليا معطية وأخرى سفلى آخذة دائمًا، واليد السّفلى عند (غرونباوم) هي دائمًا الحَضَارَة العَرَبِيّة والفكر الإسلامِيّ، فهما لايفتأان يأخذان من الحَضَارَة الهلينية واليُونَانِيّة من دون تقديم أي شيء لهما.

وتتصف نظرة (غرونباوم) هذه بأنها تفتقر إلى فهم تاريخ الأمة العَرَبِيّة وتطوّرها الذَاتِيّ وعلاقتها بالحضارات الأخرى. وهي نظرة تلتقي

(١٠٥) مجلة عالم الكتب، مصدر سابق، ص: ٦٣٨.

(١٠٦) المصدر نفسهُ، ص: ٦٣٨.

(١٠٧) دراسات في الأدب العَرَبِيّ، ص: ٩ وما بعدها [عن: مجلة عالم الكتب، ص: ٦٣٨] .

(١٠٨) مجلة عالم الكتب، مرجع سابق، ص: ٦٣٩.

وموقف كثير من المُسْتَشْرِقين الذين ترعرعوا في كنف المركزية الأوربية، وعاشوا على موائد الفكر الاِستعمَارِيّ الغربي يغتذون منها.

وتفتقر نظرته كذلك إلى فهم حقيقي لمقولة التّأثر والتّأثير بين الأمم والحضارات ضمن فهم جدلي لا ميكانيكي. فمن البديهي أن تتلاقح الحضارات ويأخذ بعضها من بعض، ولكن ليس تأثرًا سطحيًا، « فالمهم من ذلك أن الحَضَارَة الآخذة إنَّمَا تأخذ ما تستجيب لها متطلباتها الذَاتِيّة والعقلية والاجْتِمَاعِيّة »[١٠٩]، بمعنى أن الأخذ تقابله استجابة داخلية من الحَضَارَة الآخذة لما تحتاجه من الحضارات الأخرى. ولعلَّ هذا الأمر يفسر للدارس سرَّ ترجمة العَرَب عن اليونان المنطق وإعراضهم عن ترجمة المسرح الإغريقية، إذ لا يجد الأخير صدى في حضارتهم وليس إليهم مطمح في ترجمته، فليس لديها من استجابة داخلية تدفع إلى ذلك.

وما قدّمه (غرونباوم) من فهم لمقولة تأثير اليونان في الفكر العَرَبِيّ الإسلامِيّ تناول سطحي لمسألة معقّدة لا يمكن البت فيها والقطع في جرَّة قلم؛ ذلك أن اليونان أمة متوسطية، وأمم المتوسط متداخلة جنسيًا يتطلب تداخلًا في الآلهة والتّصورات الكونية، وطريقة التّفكير، وليس من اليسير ادعاء الأسبقية لهؤلاء القوم دون غيرهم.

ب- مفهوم الشّعر عند (غرونباوم).

ومما سجَّله النّبهَان على (غرونباوم) تصويره النّظرة إلى مفهوم الشّعر عند العرب، فقد حلا لـ (غرونباوم) أن يتهم العَرَب بأن الشّعر عندهم لا يعدو الوزن وهذه نظرة متعجلة، واستقراء ناقص، فـ (غرونباوم) لم يقف على آراء النّقاد العرب، أمثال الآمدي، والقاضي الجرجاني، وعبد القاهر الجرجاني.

إن (غرونباوم) اقتطع مفهوم قدامة بن جعفر للشعر من سياقه، ولم يقف على ما أفاض فيه الآمدي ومَنْ بعده كالجرجانيين وغيرهما حين تناولوا شعرية الشّعر، فكانوا يقولون عن النّصّ الذي تحققت فيه صفة الشّعرية: إنه كثير الماء والرّونق. وعبد القاهر الجرجاني الذي عرض للإيحاء خَاصّة من خصائص الشّعر الذي يستحق هذا الاسم، وعرض للفضاء النّفسي للنص في الأبيات وقف عليها من شعر كثير فوجد أن فيها ما فيها من تحقق الشّعرية، وهي الأبيات التي يقول فيها[١١٠]:

ولَمَّا قضينا مِن مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ

ومَسَّحَ بالأركانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

ج- موقفه من النّقد

أما مقولة (غرونباوم): «إنّ النّقد كان في أيدي النّحاة »، فهذا موقف جزئي عمّمه (غرونباوم)، وعقد لذلك حكمًا آخر يشدّ به عضد الحكم السّابق محاولة منه لتثبيت فكرته، فذكر أن أكثر النّقاد في العصر الهلنستي خَاصّة كان منهم نحاة أو بلاغيون. والباحث المنصف لا ينكر أن بعض

(١٠٩) المصدر نفسهُ، ص: ٦٣٩.

(١١٠) دلائل الإعجاز، ص: ٧٤-٧٥.

النّقــاد كانون نحويــين، وأنهم حكمــوا النّحْو في النّقد، ولكن غالبهم لم يكن من فريق النّحاة[١١١]. يقول النّبهَان: «وكأنّي به أراد أن يشدَّ هذا الحكم، ويلوي عنقــه ليجعل من النّقاد العَرَب صورة عن نقاد العصر الهلنستي »[١١٢].

د- الحب عند العرب

لقد استكثر (غرونباوم)، على العَرَب أن يعصف الحب بقلوبهم أو أن يلمّ بها، فجعل « فكرة الحب العَامَّة المتجلية في هذه الحلقات الشّعرية بما فيها من التّفاصيل الباكية من جهة، والمشاهد الدّعابية مــن جهة أخــرى، تحمل أثــرًا واضحًــا من نظرة اليونــان إلى الحب، والتي تبعــث الحياة في القصة اليُونَانِيّة »[١١٣].

وفي الــرّد عليــه أثار جملة من الأســئلة، ثم ختمها بعبارة «لا أدري إن كان (غرونباوم) سيقول: إن أتيح له: إن العَرَب يتنفســون الهــواء لأنَّ اليونان كانوا يفعلون ذلك »[١١٤].

هــ- شعر الطّبيعة في الأدب العَرَبِيّ:

ونظــرة شــعراء العَرَبِيّــة إلى الطّبيعة هي عند (غرونبــاوم) بتأثير يوناني كذلــك، فقد عمل وأبو تمــام، وابــن الرّومــيّ «عــلى ترقية هــذه النّظرة الحديثــة إلى الطّبيعــة التي تحمل شــبهًا من آثار الكتاب اليُونَانِيّين المتأخرين »[١١٥].

ولكــن مَنْ هؤلاء الكتاب اليُونَانِيّون الجدد الذين كان لهــم الأثر في تحوّل نظرة شــعراء العَرَبِيّة إلى الطّبيعــة؟ لقــد أهمــل (غرونباوم) ذكــر حواشٍ توضيحية تســند ما يذهب إليــه؛ لأنَّهُ في الأصل لا يملــك إلا إطلاق الأحــكام العَامَّة، وهــذا «يذكرنا بادعــاءات طــه حســين بيونانية أبي تمــام وابن الرّومي وادعاء أثر الوراثة الجنســية في أساليبهم الأدَبِيّــة وطرائــق تفكيرهــم »، وبذلــك يكــون (غرونباوم) قد أضاف ادعاء إلى ادعاء[١١٦].

والباحــث الشّــادي -بَلْــهِ المتعمِّق- لــن يجد كبير عنــاء في الوقــوف عــلى نصــوص شــعرية كثيرة بدءًا بامــرئ القيس، وانتهاء بآخر شــاعرٍ عرفته أيامنــا المُعَــاصِرة، تشــهد باحتفائهــم بالطبيعة: أرضها وسمائها، شمسها وقمرها، برها وبحرها، حيواناتها المفترســة والأليفة، «فإذا تطوّر الزمن وارتقت بأجيالهم اللاحقة أســباب الحَضَارَة، فإنَّ وصفهم للطبيعة سيأخذ منحى آخر»[١١٧].

وإذا كان النّبهَــان قد أقرّ لــ (غرونباوم) بكثيرٍ مــن الإيجابيات فإنه أجمل مآخــذه عليه في جملة من الأمور، منها:

١. طبيعة بحوثه المشتّتة وعدم الوقوف عند مسألة معينــة ومتابعتها متابعة جديدة، فحرم بذلك من النّظرة المتخصصة الدّقيقة.

٢. الاستقراء النّاقص في كثير مما عالجه.

٣. التحيّز الحَضَارِيّ والكيل بمكيالين.

(١١١) مجلة عالم الكتب، مج ١٥، ع ٦، ص:٦٤١.

(١١٢) المصدر نفسهُ، ص: ٦٤٠.

(١١٣) المصدر نفسهُ، ص: ٦٤٠.

(١١٤) المصدر نفسهُ، ص: ٦٤٠.

(١١٥) المصدر نفسهُ ، ص: ٦٤٠.

(١١٦) المصدر نفسهُ، ص: ٦٤٠.

(١١٧) المصدر نفسهُ، ص: ٦٤٠.

٤. افتقار أحكامه النّقدية إلى الدّقة.

٥. تعميماته المرفوضة شكلًا ومضمونًا.

٦. إهماله الحواشي التّوضيحية.

٧. النظرة الاستعلائية.

٨. الأحكام غير المعلّل.

النتائج :

في اســتطاعة دارس آثاره بمشــاربها المتعددة، وميادينها المتنوعة أن يلحظ جملة من الخصائص التي تسمها عَامَّة، ومنها:

١) أنهــا آثار تجمع بين التّرَاثيــة والمُعَاصِرة، فمن تحقيقات لنصوص تراثية مَخْطُوطة سواء اكانت كتبًا أم رســائل تراثية مقتضبــة، إلى نقد وتعليق عــلى ما يصدر من آثــار تراثية إلى بحــوث تراثية أو مُعَــاصِرة حواها كتابه (بحوث في اللُّغَة والنّحو والبَلَاغَة)، أو شارك فيها في مؤتمرات عِلميّة عدّة!.

٢) الأفق الثّقَافِيّ النّير الذي تتأرجح فيه هذه الآثار ورحابته، فمن تأصيل لمُصْطَلَح اللُّغَة الإشكالي، إلى دراســة للأصوات عند علماء التّجويد، إلى دراســة النّــصّ مفهومًــا وخصائصــه، إلى دراســة تأويل النّصّ الصّوفي، فدراســة مفهوم الشّــعر في الفكر الفلسفي[١١٨] ،...

٣) سلاســة الأســلوب، فتجده يُقَدِّمُ إليــك الفكرةَ معالجــة مجلَّوة مــن غير ما جنــوح إلى التّفاصح والادعــاء، أَو الأَلفاظ التّزيينيــة الخلابة، فلا تقع في مناقشاته على عبارة ملتوية أو تركيب غامض. على أنه لــمْ يكنْ يَنسَى أَنْ يغشي أســلوبه بتراكيب وصياغات أســلوبية سامية حيوية، مِن مثل قوله: «فما بالنا بســائر النّصُوص التي تتسربل صورها بالغموض، وتتلفــع أفكارها بالضباب، وتتراقص في حناياها شــتى المتناقضــات »[١١٩]، وقوله: «... نلاحــظ أن المفــسر أطلق العنــان لعقلــه، يصيد أوابــد الفكرة وشــواردها »[١٢٠]، وقوله عن المتون الحديثية: «لن يعــود منتجعها بخُفَّي حنين، ولن يرجَــع قاصدها خــالي الوفاض، وإنمــا يعود وقد صفِرَ وِطابه[١٢١]، وأمرعَ جنابُه »[١٢٢].

٤) المَوضُوعِيّة والاعتدال في إطلاق الأحكام.

٥) تقديــر جهود الآخرين، عــلى ما رأينا في موقفه من المُسْتَشْرِق (غونباوم)، وغير ذلك.

٦) الفكــر العِلمِــيّ النّيِّر الذي يضيئها ولا يســلم بما قد يشــيع مــن مفاهيم، فلا نجــده يعول على الخوض في الغيبيات اللُّغَوِيّة وغيرها، فَفَي مَعرض مُرَاجَعَتِــهِ كِتاب (الاشــتقاق والتّعريب) والتّعليق عليــه، أنكر على مؤلفه خوضــه في قضايا غيبية لا يمكــن الوصول فيهــا إلى يقين أو مــا يقرب منه، فقــال عنه: «وتمهيدًا لذلــك خاض -أي المغربيّ- في بُحُــوث وقضايــا تدخل في باب الرّجــم بالظّنّ،

(١١٨) مــن ذلك بحثه (ماهية الشــعر في فكر زكي نجيب محمود)، وهو بحث شــارك به في الندوة الفلسفية العَرَبِيّة الأولى التــي أقامتهــا الجامعــة الأردنية بــين ١٢-١٤ آب، ١٩٩٤م.

(١١٩) بحوث في اللُّغَة والنَّحْو والبَلاغَة، ص: ٢٣١.

(١٢٠) المصدر نفسهُ ، ص: ٢٤٢.

(١٢١) الوِطابُ: جمعُ (وَطْبٍ)، وهو سقاء اللبن.

(١٢٢) بحوث في اللُّغَة، والنَّحْو، والبَلاغَة، ص: ١٨٠.

كحديثـه عن تكـوّن الجنس العَرَبِـيّ، وحاول أن يقدمَ بَعضَ الآراء في نُشُوءِ الجنس العَرَبِيّ ونشوء اللُّغَــة العَرَبِيّــة ولهجاتها، لَكنَّــه كانَ كَمَنْ يحرث في البحــر؛ لأنَّهُ يبحثُ في أخبارٍ عفــا عليها الزَّمَنُ، وعبثتْ بها رواتُها، وما آفة الأخبار إلَّا رواتها»[١٢٣] .

وهذا ما دعاهُ (لــوسركل) من بعد في كتابه (عنف اللُّغَة) باللسانيات الخرافية[١٢٤].

٧) الغنــى الثَّقَافِيّ، فليســتْ أَبحَاثُهُ في جانب واحدٍ مــن علــوم اللُّغَــة والأدب، يعضــد ما نذهــب إليه غنــى المَصَادِر والمراجع التــي يعتمدها في بحوثه، فمــن كتب اللُّغَة إلى كتــب النّحو، وهي ميدانه، إلى كتب أصول الفقه، فكتب البَلَاغَة، فكتب الفلســفة قديمها وحديثها.

٨) النزعــة التّجديدية في اللُّغَــة والدعوة إليها لأنَّ التّطور من طبيعــة الحياة، فالحياة عَامَّة لا تقف عنــد حد من التّطــور، واللُّغَة مظهــر من مظاهر الحيــاة، وفي ذلك يقول: «لم يكن التّجديد اللُّغَوِيّ والدعــوة إليه في أي لُغَة مــن اللُّغَات الحية وفي أي مرحلة مــن المراحل، بدعة من البدع، ولا نافلة من النّوافــل، إنهما-التجديد فعــلًا والدعوة إليه قولًا- يتنزلان منزلــة الضرورات الملازمــة للغات الحية الرّاغبة في التّجديد الدّائم والحياة المستمرة »[١٢٥] .

فهذا منه موقف صريح لا لبس فيه تجاه التّجديد اللُّغَــوِيّ، بل هو على ما رأينــا يعده، وهو محق في ذلك، ضرورة مــن ضرورات الحيــاة اللُّغَوِيّة. بل إنك لتقف في أســلوب أســتاذنا -رحمــه الله- على اســتعمالات وأساليب هي عند المتزمتين وأصحاب (قــل ولا تقل) من باب المحرّمــات اللُّغَوِيّة التي لا يجوز الدّخول فيها.

٩) المزج بين التّنظــير والتّطبيق، فلا تخلو قَضِيَّة مــن تقديم نمــوذج تطبيقي لها، وقــد مرت بنا في تضاعيف البَحث نماذج كثيرة.

آ- الكتب:

-الإحــكام: ابــن حزم، تحقيــق مُحَمَّد أحمَد عبــد العزيز، مصر، ١٩٨٧م.

-الأشــباه والنّظائر في النّحو: جلال الدّين السّــيوطيّ (ت ٩١١هــ)، تحقيق عبد الإله نبهــان، مَجمَع اللُّغَة العَرَبِيّة، دِمَشْق، ١٩٨٥م.

-الاشــتقاق والتّعريب: عبد القادر المغربــيّ، راجعَه وعلَّق عليه د. عبــد الإله نبهان، دِمَشْــق، مَجمَع اللُّغَــة العَرَبِيّة، ٢٠١٥م.

-إعراب الحديث النّبوي، أبو البقاء العُكبريّ (ت ٦١٦هــ)، ط ٢، مَجمَع اللُّغَة العَرَبِيّة بدِمَشْق، ١٩٨٦م.

-أعــلام مَجمَع اللُّغَة العَرَبِيّة في دِمَشْــق في مئة عام، إعداد: مروان البواب، مَجمَع اللُّغَة العَرَبِيّة، دِمَشْق، ٢٠١٩م.

-اقتضــاء الصّراط المســتقيم، ابــن تيمية، تحقيــق مُحَمَّد

(١٢٣) المرجع السّــابق، مقدمــة المراجع، ص:٢٠، وانظر أيضًا ص:٢١، و٢٥.

(١٢٤) عنــف اللُّغَــة : جان جاك لــوسركل، ترجمة محمد بدوي، بــيروت، المنظمة العَرَبِيّة للترجمة، مركز دراســات الوحدة، ص: ٢٠٤.

(١٢٥) الاشــتقاق والتعريب: عبد القادر المغربي، راجعه وعلّــق عليــه: د. عبد الإله نبهــان، مَجمَع اللُّغَــة العَرَبِيّة، دِمَشْــق، ٢٠١٥م، مقدمة المراجع، ص:١٥. وانظر: بحوث في اللُّغَــة والنَّحْو والبَلاغَــة: ص: ١٠٥، وما بعدها، فصل (محاولة في دراسة معايير الخطأ في اللُّغَة).

حامد الفقي، دار المَعرِفَة، بيروت.
-بحوث في اللُّغَة والنّحو والبَلَاغَة، عبد الإله نبهان، حِمْص، مطبعة اليمامة، ط ١، ١٩٨٥.
-تفسير أبيات المعاني، أبو المرشد سليمان بن علي المعريّ (ت بعد ٤٤٩هـ)، تحقيق الدّكتور مجاهد مُحَمَّد محمود الصّواف، والدّكتور محسن غياض عجيل، مركز البَحث العِلمِيّ وإحياء التّرَاث في جامعة الملك عبد العزيز، دار المأمون للتراث بدِمَشْق، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
-دراسات في الأدب العَرَبِيّ، ترجمة إحسان عباس، وأنيس فريحة، وكمال اليازجي، وأشرف على التّرجمة الدّكتور مُحَمَّد يوسف نجم، دار مكتبة الحياة بالاشتراك مع مُؤَسّسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنّشر، بيروت، نيويورك سنة ١٩٥٩م.
-دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانيّ (ت ٤٧١هـ)، قرأه محمود شاكر (ت ١٩٩٧م)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٤م.
-عنف اللُّغَة: جان جاك لوسركل، ترجمة مُحَمَّد بدوي، بيروت، المنظمة العَرَبِيّة للترجمة، مركز دراسات الوحدة.
-فقه اللُّغَة في الكتب العَرَبِيّة، د. عبده الرّاجحيّ، دار النّهضة العَرَبِيّة، ١٩٧٢م.
-كشفُ النّقابِ المَجازيّ عن داليّة ابنِ الحجازيّ لشُعيب الكيّاليّ (ت ١١٧٢هـ)، تحقيق: د. عبد الله نبهان، ط١، دار الحوار لِلنَّشرِ والتّوزيع، حِمْص، ١٩٩٦م.
-اللُّغَة: فندريس، ترجمة مُحَمَّد الدّواخلي وعبد الحميد القصّاص، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٠م.
-المُستَصفَى من علمِ الأصول: أبو حامد مُحَمَّد بن مُحَمَّد الغزاليّ (ت ٥٠٥هـ)، شركة المَدِينَة المنورة للطباعة، المَدِينَة المنورة.
-معالم الشّريعة الإسلامِيّة: صبحي الصّالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٢م.
-موسوعة المُسْتَشْرِقين، د. عبد الرّحمن بدوي، طبعة وزارة الثّقَافة، عمان، الأردن، ٢٠١١م.
-النّحو العَرَبِيّ والدّرس الحديث: د. عبده الرّاجحيّ (ت٢٠٠٨م)، دار النّهضة العَرَبِيّة، بيروت، ١٩٧٩م.

ب- المجلات:

-مَجَلَّة عالم الكتب، مج ١٥، العدد ٦، ١٩٩٤م.
-مَجَلَّة المَعرِفَة، وزارة الثّقَافة، دِمَشْق، العدد ٢٠٢، ١٩٨٢م.
-مَجَلَّة معهد المَخْطُوطات، مج٣٩، ج٢، شوال ١٤٠٢، ديسمبر، ١٩٨٥م.

المَصَادِر والمراجع

آ- الكتب:

-الإحـكام: ابـن حزم، تحقيـق مُحَمَّد أحمَد عبـد العزيز، مصر، ١٩٨٧م.

-الأشـباه والنّظائر في النّحو: جلال الدّين السّـيوطيّ (ت ٩١١هـ)، تحقيق عبد الإله نبهـان، مَجمَع اللُّغَة العَرَبِيّة، دِمَشْق، ١٩٨٥م.

-الاشـتقاق والتّعريب: عبد القادر المغربـيّ، راجعَه وعلَّق عليه د. عبـد الإله نبهان، دِمَشْـق، مَجمَع اللُّغَـة العَرَبِيّة، ٢٠١٥م.

-إعراب الحديث النّبوي، أبو البقاء العُكبريّ (ت ٦١٦هـ)، ط ٢، مَجمَع اللُّغَة العَرَبِيّة بدِمَشْق، ١٩٨٦م.

-أعـلام مَجمَع اللُّغَة العَرَبِيّة في دِمَشْـق في مئة عام، إعداد: مروان البواب، مَجمَع اللُّغَة العَرَبِيّة، دِمَشْق، ٢٠١٩م.

-اقتضـاء الصّراط المسـتقيم، ابـن تيمية، تحقيـق مُحَمَّد حامد الفقي، دار المَعرِفَة، بيروت.

-بحوث في اللُّغَة والنّحو والبَلَاغَة، عبد الإله نبهان، حِمْص، مطبعة اليمامة، ط ١، ١٩٨٥.

-تفسـير أبيات المعاني، أبو المرشد سليمان بن علي المعريّ (ت بعـد ٤٤٩هـ)، تحقيق الدّكتور مجاهد مُحَمَّد محمود الصّواف، والدّكتور محسـن غيـاض عجيل، مركز البَحث العِلمِـيّ وإحياء الـتّرَاث في جامعة الملك عبـد العزيز، دار المأمون للتراث بدِمَشْق، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

-دراسـات في الأدب العَرَبِـيّ، ترجمـة إحسـان عبـاس، وأنيس فريحـة، وكمـال اليازجي، وأشرف عـلى التّرجمة الدّكتور مُحَمَّد يوسـف نجم، دار مكتبة الحياة بالاشتراك مع مُؤَسّسـة فرنكلين المسـاهمة للطباعة والنّشر، بيروت، نيويورك سنة ١٩٥٩م.

-دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانيّ (ت ٤٧١هـ)، قرأه محمود شـاكر (ت ١٩٩٧م)، مكتبـة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٤م.

-عنـف اللُّغَة: جـان جاك لوسركل، ترجمـة مُحَمَّد بدوي، بيروت، المنظمة العَرَبِيّة للترجمة، مركز دراسات الوحدة.

-فقـه اللُّغَة في الكتـب العَرَبِيّـة، د. عبـده الرّاجحيّ، دار النّهضة العَرَبِيّة، ١٩٧٢م.

-كشـفُ النّقابِ المَجازيّ عن داليّة ابنِ الحجازيّ لشُـعيب الكيّـاليّ (ت ١١٧٢هـ)، تحقيـق: د. عبد الله نبهان، ط١، دار الحوار لِلنَّشرِ والتّوزيع، حِمْص، ١٩٩٦م.

-اللُّغَـة: فندريس، ترجمـة مُحَمَّد الدّواخـلي وعبد الحميد القصّاص، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٠م.

-المُسـتَصفَى من علمِ الأصول: أبـو حامد مُحَمَّد بن مُحَمَّد الغـزاليّ (ت ٥٠٥هـ)، شركـة المَدِينَـة المنـورة للطباعة، المَدِينَة المنورة.

-معالـم الشّريعة الإسـلامِيّة: صبحي الصّالـح، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٨٢م.

-موسـوعة المُسْـتَشْرِقين، د. عبـد الرّحمن بـدوي، طبعة وزارة الثّقَافة، عمان، الأردن، ٢٠١١م.

-النّحـو العَرَبِـيّ والـدّرس الحديـث: د. عبـده الرّاجحيّ (ت٢٠٠٨م)، دار النّهضة العَرَبِيّة، بيروت، ١٩٧٩م.

ب- المجلات:

-مَجَلَّة عالم الكتب، مج ١٥، العدد ٦، ١٩٩٤م.

-مَجَلَّـة المَعرِفَـة، وزارة الثّقَافـة، دِمَشْـق، العـدد ٢٠٢، ١٩٨٢م.

-مَجَلَّـة معهد المَخْطُوطات، مج٣٩، ج٢، شـوال ١٤٠٢، ديسمبر، ١٩٨٥م.